310

HARLEQUIN

روايات أحلام

رحلة إلى السراب

لين غراهام

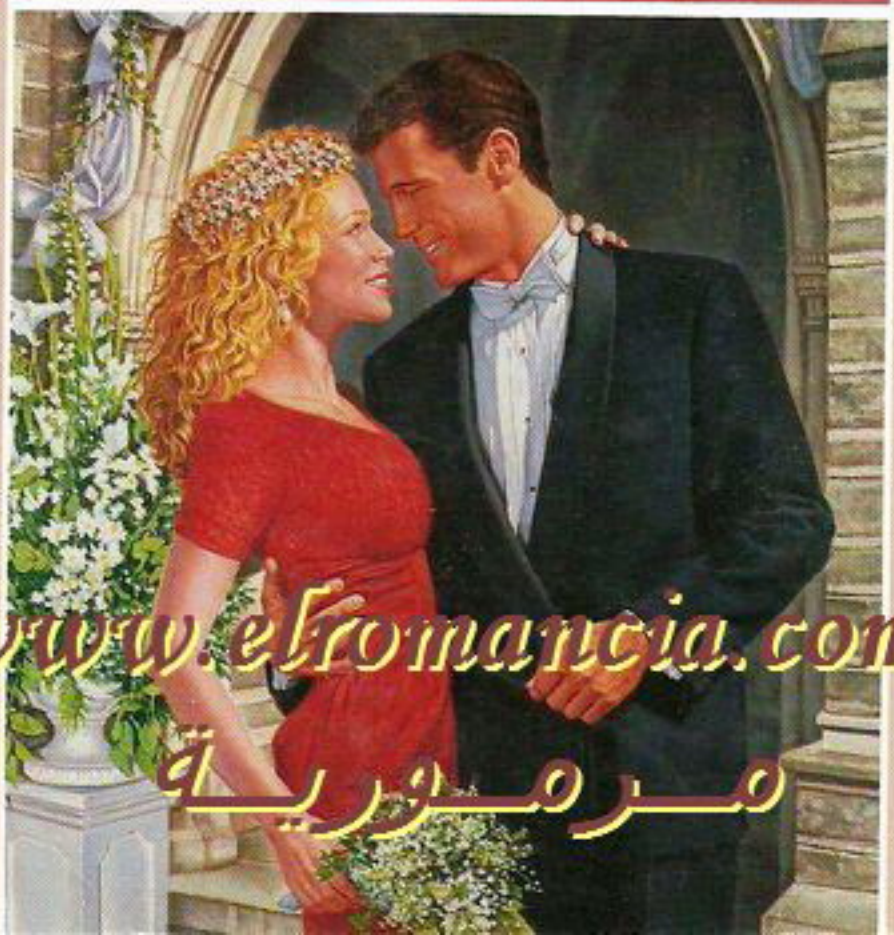

www.elromancia.com
رومانسية

رحلة إلى السراب

- لماذا تعاملني بهذا الشكل!
- بأي شكل!
- كأننا عدوان..

قال بوضوح قاطع: "لا شيء أسوأ من علاقة حب ميتة. إلا العلاقة التي لم تحدث قط...".

هكذا إذاً: لقد اعترف المليونير التركي رؤوف كازابيان أن ما جمعه هو وليلي لم يكن بالنسبة إليه شيئاً يذكر. طالما أن كل ما يبغيه هو العبث ليس إلا...

والآن هي في داره بعد فراق سنتين. نبين يديه الأورق التي تدينها وترسلها إلى السجن.

فإلى أين قادك الحب ياليلي!

لين غراهام

ولدت في شمال إيرلندا، خلال سنوات المراهقة كانت من القراء المتحمسين لـ «ميلز أندبون». تعيش لين زواجاً سعيداً مع زوجها المتفهم، الذي تعلّم الطهو ما أن بدأت هي بالكتابة!

حياتها مليئة بالحيوية والنشاط بسبب أطفالها الخمسة وكلبها الكبير الذي يثير الفوضى في كل مكان، كما أنها تملك كلب صيد صغير من نوع «التريير» وعندما تسنح لها الفرصة تعمل في حديقة منزلها بنشاط.

١ ـ عودة الماضي

عندما أنهى المستشار الجديد حديثه، أخذ رؤوف كازابيان يحدّق عبر البوسفور نحو مدينة أسطنبول والعبوس يكسو وجهه.

إنها المرّة الأولى التي لا يتأثر فيها رؤوف بسحر مضيق البوسفور. تناوب الضوء والظل على المياه المتلالئة وارتطام المدّ برفق كانا في العادة يريحان أعصابه. لكن ذكرياته المرّة، حالت دون استمتاعه بما يحيط به. لقد ضيّعت أسرة هاريس أمواله، وليلي قادمة إلى تركيا شخصياً. ماذا ستطلب منه يا ترى؟؟ معاملة خاصة؟ وعلى أي أساس؟ اختيار أسرتها لها لتكون مندوبتهم إليه هي إهانة كبرى!.

إن صمت ملك المال هذا عند سماع الخبر، أربك مستشاره سرحان ميروش الذي أخذ ينظر إليه بعينين قلقتين. أتراه، هو نفسه تجاوز حدوده عندما اتخذ خطوات تأديبية في هذه القضية؟.

صحيح أن الأموال المهدورة هنا لا تهزّ ثرياً مثل رؤوف كازابيان، لكن سرحان يفتخر باهتمامه بالتفاصيل. وكشفه عن استثمار رؤوف الخاسر في شركة سفريات انكليزية صغيرة كان عملاً جيداً، إذ يظهر بأن سلفه تغاضى عن مثل هذا الخطأ الشائن.

قال سرحان يلفت نظره خشية أن يكون قد نسي بعض النقاط الهامة أثناء شرحه السابق:

ـ عدم حصولك على شيء مقابل دعمك لتلك الشركة أمر مشين.

www.elromancia.com

وانطلاقاً من العقد المبرم بينك وبين دوغلاس هاريس، طلبتُ أن يعاد إليك المبلغ الأساسي الذي دفعته بالإضافة إلى الفائدة المئوية التي كان من المفترض أن تقبضها أثناء تلك المدة.

ـ أشكرك لأنك نبّهتني إلى تلك القضية.

قال رؤوف هذا بهدوء، فشعر سرحان بالارتياح لهذا الإطراء وتابع مشيراً بيديه:

ـ لا أفهم لماذا تريد هذه المرأة أن تراك الآن، لكن الرفض الذي بعثته إليهم بالنيابة عنك، قوبل بالتجاهل. وأمس تلقيت رسالة يطلبون منك فيها موعداً بين الرابع عشر والخامس عشر من الشهر.

راح رؤوف يفكر أن ليلي ستطأ الأراضي التركية خلال أيام قليلة فتصلب جسمه الرشيق الفارع الطول، ثم تمتم يقول: «يا لعناد الإنكليز».

قال سرحان متذمّراً: «هذ الإلحاح مزعج حقاً. لماذا تحضر تلك المرأة إلى هنا؟ فات الأوان على إيضاح الأمور، ثم إن صاحب الشركة هو والدها وليس هي».

لم يشأ رؤوف أن يشغل بال سرحان بقوله إن ليلي هاريس كانت منذ ثلاث سنوات تتخصص في حضانة الأطفال، ولا علاقة لها بعمل والدها، بل قال: «دعِ الملف معي وأنا سأتصرف، لكنني أريد أن أعلم أين تقيم الآنسة هاريس».

ـ في فندق على أحد شواطىء بحر إيجه. ربما الآنسة هاريس تعتقد بأن «غامبت» تقع بجانب مكتبك الرئيسي في اسطنبول.

ـ هذا ممكن. عندما عرفتها، لم تكنّ الجغرافيا من ضمن اهتمامها.

قال رؤوف هذا وهو يدرس الملف بعينيه الذهبيّتين الصلبتين وقد تملّكه شرود نادراً ما كان يتملّكه.

(عندما عرفتها)؟ كاد سرحان يهتف مدهوشاً بما سمعه، لكنه كان أكثر حكمة من أن يفعل، خشية أن يخسر عمله. وفي الوقت نفسه أخذ يتساءل عما سيقوله رب عمله، لو اكتشف مدى الخداع الذي عاملت به

شركة هاريس البنائين الأتراك الذين تعاقدت معهم لبناء منزلين لها.

بعد دقائق، وضع رؤوف الملف جانباً وقد لمعت في عينيه نظرة باردة، وتوتّر فمه الجميل. فقد أسخطه ما قرأ، وقرّر ألاّ يتهاون مطلقاً مع ليلي. تذكر عينيها الزرقاوين اللامعتين كشمس الصيف وهي تعترف له بأنه محور دنياها! وانطلقت من فم رؤوف الواسع ضحكة ساخرة. نعم، لقد صدّق أنها بريئة مخلصة. ومثل العديد من الرجال تخلّى مؤقتاً عن ذكائه وحذره. ولكن لحسن الحظ كانت تلك حالة ضعف سرعان ما أفاق منها.

لا شك أن ليلي تتصور أن جمالها، بالإضافة إلى ذكريات علاقتهما العاطفية الصبيانية القصيرة، قد تبدّد ذكاءه العملي وترقّق قلبه نحوها. لكنها سرعان ما ستدرك خطأها.

* * *

نزلت ليلي السلّم حاملة كيسها الثقيل، وكانت بنات أختها الثلاث، بيني وغيمّا وجوي، يلعبن في غرفة الجلوس. حملت ضحكاتهن الابتسامة إلى شفتيها المتوتّرتين. وتذكرت كفاح أختها الكبرى، هيلاري، للحفاظ على عائلتها، بالرغم من الأحداث التي ألمّت بها، والتي كان من الممكن أن تدمّر أي عائلة أخرى. فمنذ سنة واحدة هرب زوج هيلاري مع صديقتها الحميمة.

حينذاك، كانت صغرى بنات هيلاري وبريت تخضع للعلاج من سرطان الدم.

ولحسن الحظ، أخذت الطفلة منذ ذلك الحين تتماثل إلى الشفاء. أمّا الأم فكانت تؤمن بتأثير التفاؤل وكانت بحاجة إلى كل ذرة منه لكي تحافظ على معنوياتها أثناء المحنة التي تمرّ بها.

كان دوغلاس هاريس، والد ليلي، قد تنازل كلياً عن بيته المريح لهيلاري وزوجها بريت بعد زواجها مباشرة، لكنه استمر في العيش معهما. وعند الطلاق، صدر حكم أعطى لبريت ملكيّة نصف البيت الزوجي الذي لم يدفع فيه قرشاً واحداً، ونتيجة لذلك كان لا بد من بيعه.

بعد ذلك بوقت قصير، تبيّن أنّ شركة «سفريات هاريس» التي يملكها والد ليلي وبديرها بريت، تعاني هي أيضاً من المشاكل. فانتقل دوغلاس هاريس وابنته هيلاري وحفيداته الصغيرات إلى منزل آخر.

ـ لِمَ لم تدعيني أساعدك بحمل ذلك الكيس؟.

جاء صوت هيلاري يؤنبها من عتبة باب المطبخ. كانت هيلاري امرأة طويلة نحيفة ذات شعر بني قصير. ولكن حتى ابتسامتها الدائمة لم تستطع أن تخفي التعب البادي في عينيها من جراء كفاحها الدائم للقيام بالتزاماتها الكثيرة.

ـ لدينا الوقت لتناول فنجان شاي قبل أن نتوجه إلى المطار. هل ودّعت أباك؟.

ـ نعم، وعندما نذهب سيأخذ البنات إلى الحديقة العامة...

ـ عظيم.. فقد بدأت أظن أننا بحاجة إلى استعمال القوة لنخرجه من غرفة نومه تلك!.

بالرغم من مظهر الارتياح الذي بدا عليها لهذا الخبر، تردّدت قليلاً: «لن يستعيد أبي عافيته ما لم يستعد رغبته في الحياة. لا فائدة من النظر إلى الوراء والبكاء على الأطلال، أليس كذلك؟».

ـ هذا صحيح.

وافقتها ليلي على ذلك وهي تتجنب النظر إلى عينيها المغرورقتين بالدموع. فهي تدرك تماماً أن أختها الكبرى تعتبر نفسها مسؤولة عن إرغام أبيها على التخلي عن بيته الذي عاش فيه طوال حياته، وما نتج عن ذلك من شعور دائم بالكآبة.

ـ ألا ينبغي أن نراجع برنامجي في تركيا مرة أخرى قبل أن أغادر؟ أول ما عليّ القيام به هو رؤية رؤوف بشأن...

فنظرت هيلاري إليها معنفة.

ـ أما زلت قلقة بالنسبة إلى تلك الرسالة الغبية التي أرسلها محاسبه؟ لا حاجة بك لذلك. وكما أخبرتك، راجعت دفاتر الشركة فوجدت أن تلك

المستحقات قد دُفعت. إننا في الواقع، قد وفّينا بكل التزاماتنا في تلك الاتفاقية، وما جرى بالنسبة إلى رؤوف كازابيان ما هو إلا زوبعة في فنجان. عندما يدرك أن محاسبه الجديد اقترف غلطة كبرى مربكة، أنا واثقة من أنه سيعتذر.

لكن مخيّلة ليلي رفضت أن تتصور رؤوف في ذلك المظهر، وأجفلت أفكارها مرتبكة مرّة أخرى. هيلاري تحسن دوماً الظن بالناس، وتفترض أن أساس كل مشكلة هو إما غلطة وإما سوء تفاهم. لكن ليلي أقل منها ثقة وأكثر قلقاً. عندما رأت تلك الرسالة الرسمية من محاسب رؤوف، صدمها طلبه الفظ استعادة مبلغ الاستثمار الذي كان رؤوف قد دفعه، هذا عدا عن المستحقات الأخرى التي سبق أن دفعت.

في الواقع، كانت ليلي تفضّل لو أن أختها استشارت محامياً أو حتى محاسباً آخر بالنسبة لذلك الطلب. لكن اضطرار هيلاري لدفع مبالغ طائلة للمحامين الذين تولّوا قضية طلاقها، جعلها تقرر ألاّ تطلب نصيحة قانونية أو مالية إلا كملجأ أخير. هذا إلى أنّ هيلاري كانت تؤمن بأن الاتفاقية القائمة بين رؤوف وأبيها هي اتفاقية متينة سديدة. ولكن ماذا لو أنها ليست كذلك؟ ماذا لو أن فيها منفذاً للهرب، ورؤوف يطلب استعادة حصته من ذلك المشروع الذي أثبت فشله؟.

وجدت ليلي نفسها مذنبة أيضاً في هذه المسألة، فلو لم تُحضر رؤوف إلى البيت لمقابلة أبيها، لما كانت تلك الاتفاقية قد أُبرمت مطلقاً. ذلك أن أباها كان قد رفض اقتراح بريت بأن يأخذ قرضاً مصرفياً بفائدة ضخمة، فلطالما كان شديد الحذر بالنسبة للأمور العملية، إلا أن عرض التمويل من شريك صامت قد أغواه، فجازف بخطة توسيعية أقنعه صهره بالتفكير فيها جدياً.

قالت هيلاري وقد رأت قلق ليلي وانزعاجها: «كفى قلقاً بسبب تلك الرسالة الغبية».

ثم تابعت قائلة:

ـ علينا وضع البيتين اللذين بناهما بريت في «داليان» بين يدي وكيل عقاري مناسب. وعندما يباعان، تنتهي المشاكل المالية في شركة «سفريات هاريس». تأكدي فقط من بيعهما بثمن معقول.

فقالت ليلي: «سأفعل. وإذا كانا يبدوان في حالة سيئة بسبب هجرهما مدة طويلة، سأقوم بما أستطيعه».

وعدتها ليلي بذلك، متسائلة عما إن كانت هيلاري تعلم أن وجهها يظلم كلما أتت على ذكر زوجها السابق، بينما يتملكها هي شعور هائل بالذنب، لأن هذا الطلاق كان فيه راحة بالغة بالنسبة إليها.

ـ الميزانية لا تحتمل أكثر من نفقات الطلاء.

وسكتت لتفض نزاعاً مفاجئاً بين بيني، البالغة من العمر تسع سنوات وغيمًا، وهي في الثامنة، واللتين كانتا نسختين عن أمهما بشعرهما البني الناعم وأعينهما العسلية، ثم تابعت:

ـ ركزي على جمع ما استطعت من صور للمناظر الخلاّبة، وأنا سأحوّلها إلى بطاقات سياحية أرسلها في طرود بريدية إلى تركيا في الربيع القادم. أنا مصممة على أن أعيد الشركة إلى سابق عهدها. لا يمكننا أن ننافس الشركات السياحية الكبرى، ولكن بإمكاننا أن نقدم خدمات خاصة لتشجيع السياح.

ـ آمل أن أتمكن من توقيع اتفاقية سياحية هناك.

تركت هيلاري البنات في رعاية جدهنّ ثم أوصلت ليلي إلى المطار.

ـ أعرف أنك لا تريدين أن أقول هذا. . ولكني أشكرك من أعماق قلبي على كل ما فعلته أثناء الشهور الأخيرة.

قالت الأخت الكبرى هذا فجأة، فأجابت ليلي مازحة:

ـ أنا لم أفعل شيئاً يذكر. وها أنذا أحظى بإجازة مفتوحة فوق ذلك.

ـ لا بهجة في الإجازات عندما يكون المرء وحده. وأنا أعلم أنه كان بإمكانك أن تمضي الصيف بأكمله في إسبانيا، لو أنك لم ترفضي تلك الدعوة التي جاءتك من صديقتك في الكلية.

فسألتها ليلي بدهشة: «كيف علمت بهذا؟».

ـ أبي سمعك تتحدثين على الهاتف مع ماريا، ثم أنا واثقة من أنك غير مستعجلة لمقابلة ذلك النذل رؤوف كازابيان، مرة أخرى.

وتنهدت هيلاري بأسف واضح:

ـ ولكن لا يمكنني أن أترك والدي والأطفال وشركة السفريات، حالياً، لأقوم بالرحلة بنفسي.

حدّقت ليلي أمامها بفتور ثم أرغمت نفسها على الابتسام لتبدد قلق أختها:

ـ بعد مرور هذا الوقت الطويل، سيكون من المؤسف لو بقيت ضعيفة حيال رؤوف. ثم إنني لا أدعوه نذلاً. أعني. . ماذا فعل؟.

ـ كان متغطرساً، وقد حطّم قلبك!.

ردّت هيلاري عليها بصلابة غير عادية ذُهلت لها ليلي، ثم تابعت:

ـ إذا كان قد رغب في صحبة امرأة لتمضية الوقت أثناء إقامته في لندن ذلك الصيف، كان عليه أن يختار امرأة أكبر سناً وأكثر حكمة. لكنه، بدلاً من ذلك، قادك صعوداً في طريق الجنة ثم رحل دون سابق إنذار.

عند هذا الجواب الغاضب، أدارت ليلي إلى أختها عينين زرقاوين مجفلتين:

ـ لم أدرك قط أن شعورك كان بهذا الشكل.

ـ إنني أكرهه للغاية، خصوصاً بعد أن أدركت الأذى الذي ألحقه بثقتك بنفسك. فمن غير الطبيعي بالنسبة إلى فتاة في سنك، ألاّ تخرج مع الشبان. لطالما كنت متحفّظة وخجولاً قليلاً، ولكن بعد ما فعله، أظنك سجنت نفسك وألقيت بالمفتاح بعيداً. آسفة، كان علي أن أهتم فقط بشؤوني الخاصة.

ـ لا بأس في ذلك.

وابتلعت ليلي غصة في حلقها. لقد تأثرت بوفاء هيلاري وحبها، لكنها تألّمت لملاحظاتها تلك.

في الواقع، لم تدرك هيلاري أن ليلي أرغمت نفسها على الخروج خلال السنة الماضية مع عدّة شبان، آملة بالتعرف إلى شخص يجعلها تشعر نحوه كما جعلها رؤوف تشعر ذات يوم، فتتمكن بذلك من نسيان الماضي إلا أن ذلك لم يحدث. ولكن، لحسن الحظ، أن أختها أخطأت في إدراك الهوية الحقيقية للرجل الذي دمّر ثقة ليلي بنفسها. فليلي صمّمت ألا تخبر أختها بالحقيقة قط، لئلاّ تتسبب لها بمزيد من الألم.

صحيح أن رحيل رؤوف المفاجىء قد آلمها بشكل هائل. لكنّ رؤوف لم يذكر لها شيئاً عن الحب أو المستقبل، وإنما، في الحقيقة، أخبرها بأن ليس في نيّته الزواج على الإطلاق. وهكذا كانت علاقتهما، بالنسبة إليه، مجرد غزل بسيط. لذا لم تتألم كثيراً لهذا الأمر. وهل هو ذنب رؤوف إذا كانت قد أقنعت نفسها بأن شعوره نحوها أقوى مما هو في الحقيقة؟ لقد كانت صغيرة في السن، عديمة الخبرة، وغارقة في الحب، بحيث لم تشأ أن تواجه الواقع المرير وهو أن الرجل الرائع المحنّك يعتبر العبث جزءاً من أي علاقة، سواء كانت جادة أم عابرة. وقد نبذها رؤوف لأنها لم تشأ أن تحقق له تلك الناحية.

وتمتمت هيلاري بتعاسة: «لا.. لا تقولي لا بأس في ذلك. أنت الآن في الرابعة والعشرين تقريباً. وما كان لي، في الواقع، أن أتدخل في حياتك وكأنك مراهقة».

ارتسمت على وجه ليلي ابتسامة عريضة لا إرادية، ذلك أن هيلاري كانت بالنسبة إليها أقرب إلى الأم منها إلى الأخت وهي التي تكبرها بأربعة عشر عاماً تقريباً. لقد ماتت الأم بعد ولادة ليلي بأيام بسبب مضاعفات ألمّت بها، ومنذ ذلك الحين حملت هيلاري الكثير من المسؤولية في البيت. رُتب أمر العناية بالطفلة أثناء النهار، لكن هيلاري هي التي كانت تهتم بأختها أثناء الليل وتهزها لكي تنام. هي التي ضحّت بدخول الجامعة كي لا تترك أختها في عهدة حاضنات الأطفال، أو مع والدها الذي كان غالباً ما يعمل كدليل سياحي. وهذا العمل كان، ذات يوم، وراء ازدهار

شركة «سفريات هاريس».

كانت ليلي تدرك تماماً أنها تدين بالكثير لهيلاري، ولهذا كانت تبذل ما في وسعها لكي تخفف من الحمل الذي تنوء أختها تحته، فقد كان لدى هيلاري الكثير من المسؤوليات وجلّ ما كانت ليلي تتمناه هو مساعدتها بشكل فعّال. لكنها لسوء الحظ، تعمل في مدرسة حضانة تقع على بعد مئتي ميل.

وبعد عدّة أسابيع، عندما يبدأ فصل الدراسة الجديد، سيكون عليها العودة إلى عملها، ولن تتمكن من مساعدة هيلاري عندما تحتاج إلى عون، أو حتى إلى عناق يرفع من معنوياتها. لذا، فإن هذه الرحلة التعيسة إلى تركيا بالنيابة عن هيلاري، هي كل ما بإمكانها أن تفعله، رغم أنها كانت تخشى رؤية رؤوف مرة أخرى.

* * *

ـ هناك رسالة لك.

هذا ما قيل لليلي عندما وصلت أخيراً إلى مكتب الاستقبال في فندقها الصغير، عند الساعة الثانية من صباح اليوم التالي.

فتحت الرسالة وهي تتجه نحو غرفتها ثم شهقت طويلاً.

(السيد كازابيان سيقابلك عند الساعة الحادية عشرة قبل الظهر في «فندق بحر إيجه»).

جافاها النوم بقية الليل، واستيقظت عدة مرات، تقضّ مضجعها أحلام عن رؤوف وعن ذلك الصيف الذي بلغت فيه عامها الواحد والعشرين. رؤوف كازابيان، ذلك الشاب الذي أقنعها بأن الشوق والحب غير المتبادل يمكن أن يقتل المرأة. كيف فعل ذلك بها؟ وكيف استطاع أن يخترق دفاعاتها منذ البداية؟

ما يحيّر ليلي أنها بقيت ترفض الرجال مدة طويلة، إلى أن أتى رؤوف راغباً في التعرف إليها.

عندما خرجت من فندقها لتستقل سيارة أجرة، شعرت بانزعاج وتوتّر

شديدين. حقيبة المستندات التي تحملها كانت تحتوي على نسخ عن دفاتر الحسابات والبيانات المصرفية التي زودتها بها هيلاري، لتثبت أن كل المستحقّات قد تم تسديدها لشركة رؤوف، «إم. إم. أي» في مواعيدها. ترجلت من السيارة أمام فندق بالغ الفخامة، يرفرف أمام مدخله المهيب صف من الأعلام.

لم يكن رؤوف قد استعرض ثراءه البالغ في لندن. وفي الواقع، لم يكن لديها فكرة عن وضعه في دنيا الأعمال، إلا بعد أن أخذ أبوها يتحرّى بحذر من خلال مصرفه عن ذلك الرجل الذي يعرض عليه دعماً مالياً. وقد اقترح عليه مدير المصرف أن يحتفل بذلك العرض السخي الصادر عن أحد أغنى وأقوى رجال الأعمال في أوروبا.

* * *

في قاعة الاستقبال الفسيحة في «فندق بحر إيجه»، كان رؤوف جالساً في مقعده الوثير، وأمامه كوب مياه معدنية. كان الخدم يقفون على مسافة كافية منه ليطمئنوا إلى أن أحداً لن يزعجه. فالفندق كان ملكاً له، واستقباله ليلي في مكان عام يثبت أن هذا اللقاء رسمي، عملي، وقصير الأمد.

ربما كان ليستقبلها في شقته في الفندق، لولا أن أفراد الأسرة ينتظرونه هناك الآن لتناول الغداء. لقد اختارت نساء أسرة كازابيان هذا الصباح بالذات ليأتين إلى بيته للقيام بجولة في طائرته الخاصة. وكبح رؤوف آهة أسى، لأن أمه وجدته وجدة أمه متسلطات، متعبات للغاية أحياناً. فما ذنبه إذا كان هو الولد الوحيد ومحطّ آمالهن في إنجاب الجيل التالي في الأسرة؟.

أزاح جانباً هذه الأفكار عابساً، وعاد بأفكاره إلى ليلي. كان يتوقع أن يخيب أمله تماماً عندما يراها مرّة أخرى. ولهذا كان من السخرية البالغة أن يرى البوّابين يتسابقان إلى فتح الباب على اتساعه لتدخل امرأة إلى الفندق، ما جعله يدرك أنها لا بد أن تكون ليلي. فوحده جمالها بإمكانه أن يثير انتباه

الرجال بذلك الشكل المبالغ فيه. عندما اقتربت من المكتب، أخذ رؤوف ينظر إلى الموظف الشاب وهو يندفع ليحييها، فأطبق فمه الواسع حتى أصبح خطاً أكثر صلابة من الفولاذ.

كان شعر ليلي المتألق في أشعة الشمس، منسدلاً حتى خصرها. حتى أنه بدا أطول مما كان عليه في ذلك الصيف. أمّا ثوبها البسيط فكان يبرز جمال جسدها الممشوق في حين أن شعرها الذهبي الكثيف يثير مشاعر أكثر الرجال تصلباً.

وفي الواقع، كان يحلو لرؤوف أن يراقب كل رجل تمرّ بقربه وهو يستدير ليراها، ثم يلحظ كيف تتظاهر هي بعدم انتباهها إلى الجلبة التي أحدثتها. ولكن ما من امرأة أنعم الله عليها بمثل هذا الجمال يمكنها أن تتجاهل هذه النعمة. ولو أنه لم يسمح لنفسه بأن ينخدع بهذه البراءة التي تبدو عليها، لأدرك حتماً بأنها ليست فقط عادية، وإنما أيضاً عاهرة مدرّبة.

* * *

عندما سارت ليلي في الاتجاه الذي أشار موظف الاستقبال إليه، تسارعت خفقات قلبها إلى حدّ لم تكد تستطيع معه أن تلتقط أنفاسها. ما زالت لا تستطيع أن تصدق أنها سترى رؤوف كازابيان مرة أخرى. وما أن رأته حتى انتفض جسدها بأكمله متوتّراً بألم ثم جمدت مكانها وقد شلّتها أول نظرة منه.

كان فارع الطول، عريض الكتفين، مفتول العضلات. ما من كلمة يمكنها أن تصف تماماً وسامته ورجولته، أو تفيهما حقهما. فقد كان رؤوف وسيماً لدرجة أنه كان يدير رؤوس النساء في شوارع لندن. فشعره أسود لامع وملامحه آسرة، أما لون عينيه فمزيج من البني والذهبي النقي كلون الشمس الغاربة.

وعندما أرغمت نفسها على التقدّم نحوه، شعرت بساقيها واهنتين. واحمر وجهها عندما أدركت أنها واقفة تحدّق إليه، كأنها مراهقة خرقاء. أما هو، فلم يسهّل عليها الأمر ويتقدم نحوها، بل بقي واقفاً في مكانه

منتظراً ريثما تصل إليه. كيف نسيت أنه يسيطر على كل ما حوله؟ وأن بإمكانه أن يسمرّها مكانها بنظرة واحدة من هاتين العينين اللامعتين الكثيفتي الأهداب؟.

أخذ ينظر إليها وهي تقترب. بدت كدمية رائعة، ورقيقة للغاية. حتى أنها ما زالت كما عرفها تثير فيه الرغبة بحمايتها.

أخذ رؤوف نفساً قصيراً حاداً. إذ شعر من جهة برغبة في معانقتها، ومن جهة أخرى كان عقله يمنعه عن ذلك. فتملكه الغيظ لضعفه هذا.

وقفت ليلي على بعد عدة خطوات منه، وقد أقلقها توتر أعصابها وارتباك ذهنها، وعجزها عن تحويل نظرتها عنه. وأخيراً قالت لاهثة، مجفلة تقريباً لصوتها المتوتر:

ـ لقد مرّ وقت طويل.

ـ نعم. أتريدين أن تشربي شيئاً؟

ـ عصير البرتقال... من فضلك.

ألقى رؤوف أوامره إلى النادل، ثم عاد إليها قائلاً ببرودة:

ـ فلنبدأ بالعمل. ليس لديّ وقت طويل أضيّعه.

* * *

٢ ـ بركان خامد

فوجئت ليلي بالبرودة التي استقبلها بها، فشعرت بالارتياح لمجيء النادل الذي سحب كرسياً أجلسها عليه:

ـ شكراً لك.

ـ بكل سرور، آنستي.

أجابها الفتى بابتسامة إعجاب، إلى أن صدرت عن رؤوف كلمة باردة جعلته ينسحب بسرعة:

ـ ربما لاحظت أن رجالي الريفيين تستهويهم النساء الشقراوات.

قال رؤوف هذا بصوته العميق. وفكرت هي في سائق سيارة الأجرة الذي حاول أن يثرثر معها، وفي كل الرجال الذين اجتذبت اهتمامهم منذ وصولها، ما أشعرها بالارتباك، فقالت بصوت خافت:

ـ نعم.

ومع ذلك كان إحساسها بقربه يسري في كل ذرة من كيانها. وازداد توتّرها بسبب ردة فعلها هذه التي أعادتها إلى سن الحادية والعشرين، ذلك أنه لم يكن لأي رجل مثل هذا التأثير عليها من قبل.

هز رؤوف كتفيه العريضتين قائلاً:

ـ هنا، مع الأسف وفي أماكن سياحية أخرى، السائحات الإنكليزيات سيئات السمعة ويقال إنّه من السهل الإيقاع بهنّ.

فقالت وقد التهب وجهها: «عفواً؟ لم أسمع جيداً».

www.elromancia.com

فألقى عليها نظرة باردة مثقلة بالسخرية. لم يكن من عادته القيام بمثل هذه المهاجمات الصريحة، لكنه كان مصمماً على نسف ثقتها بنفسها وبجمالها:

ـ بعض النساء الإنكليزيات مولعات بالرجال الأتراك، فلا تلومي الرجال إذا ضايقوك.

ـ لا أظنني لمت أحداً.

واستندت أصابع ليلي حول حقيبة المستندات التي وضعتها على ركبتيها. ولم تستطع أن تصدق أنه يتحدث إليها بمثل هذه الطريقة. وإذ تملكها الارتباك بسبب عدائه، طال تأملها للهزء الواضح في التواء فمه الجميل.

أرغمت نفسها على رفع رأسها، وواجهت عينيه العسليتين الحازمتين. فتوقفت أنفاسها.

انخفضت أهدابه السوداء الكثيفة فوق نظراته المدمرة، فتململت في مقعدها متوترة، وقد التهبت أعصابها، متلهفة إلى تحطيم هذه القوة المغناطيسية التي يمارسها عليها، مذهولة لبقائها متأثرة بهذا الرجل الذي نبذها. سلخت عينيها عنه وتمتمت بشكل مفاجىء زاد من ارتباكها:

ـ قلت إن ليس لديك وقت تضيعه، لذا هل يمكننا أن نتحدث عن سوء التفاهم الحاصل بالنسبة إلى العقد القائم بينك وبين أبي؟

استقرّت نظرات رؤوف المتألقة على نظراتها المراوغة بتسلية عابسة دون أقل مقدار من الرضى. إذاً لهذا السبب تريد رؤيته؟ وذلك، على الأقل، ليس كذباً.

رفع حاجبه الأسود متحدياً: «ليس هناك سوء تفاهم».

ـ بلى.

وبدين مرتجفتين أخرجت من الحقيبة رزمة الأوراق التي زودتها هيلاري بها...

تساءل عما ترجوه من هذه الوسائل التي لا فائدة منها. فهي لن تقنعه

بأن مستشاره الاستثماري ذا المؤهلات العالية عاجز عن ملاحظة أي تقصير إذا رآه. وزفر رؤوف بنفاد صبر:

ـ ليس لديّ نيّة في دراسة هذه المستندات. ذلك أن أباك لم يلتزم بالاتفاقية، ولم يعطنا حصتنا من الأرباح السنوية وذلك لأكثر من سنتين، وهذا هو المهم في الأمر.

ـ أبي لا يتخلف عن تنفيذ بنود أي عقد.

وتملكها القلق لرفض رؤوف العنيد حتى النظر إلى الأوراق التي وضعتها على الطاولة، فمالت إلى الأمام، وبحدة بالغة أمسكت أول ورقة بنفسها:

ـ هذا البند في دفتر حسابات السنة الماضية. مبلغ ضخم من المال حُوّل إلى حساب معروف باسم «مار ماريس ميديا إنكوربوريتد» في المصرف التركي في لندن. ولديّ كل البراهين على ذلك التحويل. بالله عليك، إذا كان هذا لا يثبت أن هناك سوء تفاهم، فأي شيء يثبته؟.

تحول اهتمامه الآن تماماً إلى ما قالت، ذلك أنه لم يكن يتعامل مع المصرف التركي في لندن. نظر إلى وجهها المتوهّج القلق وقال:

ـ يبدو أن سوء التفاهم هذا مقدر له أن ينتهي بين أيدي عصابة احتيال دولية.

شحب وجهها واتسعت عيناها الزرقاوان، وسقطت الورقة من بين يديها وشهقت:

ـ ما الذي تحاول قوله؟.

ـ أقول إن الاسم التجاري (مار ماريس ميديا إنكوربوريتد) يشبه كثيراً الاسم الذي تحمله شركاتي...

فقالت تجادله بارتباك:

ـ الذي هو «م. م. أ.. مار ماريس ميديا إنكوربوريتد!».

ـ لا، وأظنك تعلمين أن ذلك غير صحيح.

واجهها رؤوف بذلك ببرودة ساخرة، لأنه أصبح مقتنعاً الآن بأنها

تحاول أن تغطي المسألة، وتابع يقول: «م. م أ» إنما هو «مار ماريس ميديا إنترناشيونال»، والمال الذي يدفع في حساب «مار ماريس ميديا إنكوربوريتد» لا علاقة له بي».

ـ إذن، لا بد أن المال ما زال هناك، في ذلك الحساب التعيس.

هتفت ليلي بذلك على الفور ظناً منها أنها اكتشفت أين حصل ذلك الخطأ المميت في معاملات شركة «سفريات هاريس» مع رؤوف:

ـ ألا تستطيع أن ترى؟ لا أحد في «سفريات هاريس» يعلم أنه حصل على الاسم الخطأ، وأن الدفع قد ذهب إلى حساب شخص آخر... آه، يا إلهي، ماذا لو أنهم أنفقوا المبلغ؟.

شعر رؤوف رغماً عنه بمزيد من التسلية مع كل ثانية يمضيها مستمعاً إلى حديثها. كانت تبدو أشبه بملاك، ولو أنه لم يكن يعلم عنها ما يعلم، لربما كانت الفتنة في عينيها الرائعتين اخترقت حتى درع السخرية الذي يتسلح به. أرخى أهدابه ليستر نظراته المعجبة. حريّ بها أن تمثل في فيلم بوليسي فتأخذ دور شخصية تحطم الأعصاب ببساطتها. فما من شخص يملك ذرّة من الذكاء تخدعه هذه القصة الخرافية. كان ليراهن بنصف ثروته، لو رضي بالقيام بالمهمة المرهقة التي تحاول أن تحضّه عليها.. تريده أن يتصرف كحليف لها في ملاحقة مجرم مجهول، لكي يجد أخيراً.. يجد ماذا؟ مفاجأة؟ لكنه لا يظن أن هناك مفاجأة! الحساب المزور المسمى «مار ماريس ميديا إنكوربوريتد» سيكون خالياً. فنقل الأموال بين حساب وآخر لإخفاء مكان توجهها بعد ذلك، وتدوين مبالغ مزيفة في دفاتر الحسابات من أكثر الأساليب الشائعة بدائية في تغطية الاحتيال.

ـ ألم تسمع ما قلت؟.

اندفعت ليلي تقول ذلك ولم تستطع أن تصدق برودته إزاء الموضوع. بدا واضحاً أن المدفوعات المستحقة لرؤوف قد تم إرسالها خطأ إلى حساب مصرفي آخر:

ـ إما أن كل تلك المدفوعات قد تكوّمت في أحد تلك الحسابات الخامدة، وإما أن شخصاً ما كان يستمتع بأموالك طوال السنتين الماضيتين.

ـ لحسن الحظ إنها ليست مشكلتي.

ردّ عليها رؤوف بنعومة الحرير، لكنه كان يحاول جاهداً أن يبعد تفكيره عنها ويلجم رغبته في معانقتها. لكنه لم يستطع، ما زاد من انزعاجه.

ـ لكنها نقودك.. ألا يهمك أمرها؟.

أذهلها عدم اهتمامه الواضح، فنظرت إليه مباشرة واصطدمت نظراتها بعينيه الذهبيتين الملتهبتين.

كاد قلبها يتوقف عن الخفقان وشعرت بصدرها يعلو ويهبط بسرعة. تصلّب جسمها خجلاً من مشاعرها فأحنت رأسها وعادت تجلس على كرسيها بسرعة. أتراه ما زال يحس بتأثيره المخيف عليها؟ وغمرها شعور بالمذلة، فهي لم تتصوّر قط أنها بعد ثلاث سنوات ستبقى ضعيفة تجاه رؤوف كازابيان، رغم أنها لم تعد تحبه. قد يكون رجلاً وسيماً.. في الواقع وسيم جداً.. لكن هذا ليس عذراً، بالطبع.

هزم غضبه البالغ ما تشعر به من إثارة جسدية.

أخذ رؤوف يتذكر القسوة التي كانت تغيظه بها دوماً. حتى أنها ذات مرة جذبته إليها بلهفة وعاطفة جياشة وإذا بها فجأة تبعده عنها بعد أن تجرأ على التجاوب معها. ولكن أكثر مؤامراتها قسوة كانت حين قالت له كلمتين لم يستطع نسيانهما أبداً، وهما (أنت تخيفني)، أفضت إليه بذلك معتذرة بصوت خافت. فصدمه قولها وجعله يشعر بالخزي، الأمر الذي دفعه للتحكم بنفسه بشكل لم يفعله قط من قبل مع أي امرأة أخرى.

ولأنه كان لا يزال يشعر بقسوة ذلك الظلم والاتهام الجارح، اعتدل في جلسته وقد عاد إليه ذكاؤه وقال باستعلاء:

ـ «سفريات هاريس» ما زالت مخلّة بالعقد، وأتمنى لك الحظ في

ملاحقة المسؤول عن ذلك. وعلى كل حال، كل ما تدينون لي به يجب أن يُسدّد...

تملك ليلي التوتر وقالت بشفتين جافتين: «نعم، أنا موافقة طبعاً، ولكن..».

ـ لا أحب أن أكون عنيفاً. ولكن أحياناً أتحول فعلاً إلى وغد عديم الرحمة.

قال ذلك فيما بدت عيناه قاسيتين سوداوين كظلام الليل.

ـ أنا فقط أسألك أن تكون منطقياً وتراجع هذه الأوراق. ولكن حتى هذا، لا تفعله لأجلي.

ونظرت إليه بعينين زرقاوين معنفتين: «ومن المؤكد أن ما أسأله ليس كثيراً.. لماذا تعاملني بهذا الشكل؟».

ـ بأي شكل؟.

سألها بنفس اللهجة الباردة، فتمتمت بضيق:

ـ كأننا عدّوان أو ما شابه...

فقال بوضوح قاطع: «لا شيء أسوأ من علاقة حب ميتة، ما عدا، طبعاً، العلاقة التي لم تحدث قط..».

شحب وجه ليلي وجمدت مكانها وكأنها تلقت صفعة على وجهها. حدّقت بحدة في الأوراق التي رفض أن يراجعها، بينما أخذت تغالب دموعها. هكذا إذن! لقد اعترف لسانه أن ما جعله يفقد كل اهتمام بها هو تلك (العلاقة التي لم تحدث قط). إذن ما جمعهما لم يكن بالنسبة إليه شيئاً يذكر، طالما أن كل ما كان يبغيه هو العبث ليس إلاّ. لقد اشتبهت بالأمر لكن ذلك الإثبات المباشر آلمها حقاً. اختطفت كأس العصير وأخذت عدة رشفات منه تخفف بها من الغصة التي تكوّنت في حلقها. مذكرة نفسها بأن لديها أموراً أهم لتفكّر فيها، ثم حاولت أن تستعيد رباطة جأشها.

ـ الوقت يداهمنا.

قال هذا مقوّياً نفسه إزاء الطريقة البارعة التي جلست فيها وقد بدت أشبه بصبيّ معاقب. لكنه لم يعد ينخدع بهذه البراءة. فقد تعلّم، على حساب خسارته، أن ليلي ممثلة بارعة. وهدفها الوحيد حينذاك كان، كما هو الآن، نقوده، وليس خاتم الزواج كما اعتقد يوماً ما، بسذاجة.

ابتلعت ليلي ريقها بصعوبة، ورفعت رأسها، وتنفست بعمق:

ـ أقرّ بأنه منذ لقائنا الأخير، لم تعد شركة هاريس كما كانت. فمنذ سنتين، وبعد مرض مفاجىء أصاب أبي، تقاعد وسلّم الشركة لصهري بريت. والآن ذهب بريت واستلمت أختي هيلاري إدارة العمل مكانه. أنت تقول إن العقد قد فُسخ ولن تسمح بفرصة لإصلاح أي خطأ. ولكن إذا كنت مصراً على المطالبة بحصتك في الشركة حالاً، فقد يتسبب هذا في إفلاسها.

ـ قد يكون العمل قاسياً أحياناً، آسف لكنني لست مستعداً الآن للمراوغة والانتظار.

قال رؤوف هذا بجفاء بالغ، وهو يتساءل إلى أين ذهب بريت غيلمان يا ترى؟ إلى القبر؟ إلى وظيفة أخرى في مكان آخر؟ لكنه لن يسمح لنفسه بأن يسألها.

ـ هرب بريت مع صديقة هيلاري الحميمة جانيس.

أكملت ليلي حديثها بتثاقل. فلاحظ أنها، تماماً كما يتذكرها في الماضي، تشير إلى صهرها بعينين حذرتين وكأنهما تخفيان سراً.

ـ هيلاري وبريت مطلقان الآن.

هذا إذن سبب حضور ليلي إلى تركيا.. لكي تلتمس منه السماح، وترفرف بأهدابها البنيّة، وتتدلل عليه... بريت هرب مع امرأة حمقاء أخرى... وتوترت ملامح وجهه القوية وفمه الجميل اشمئزازاً.

من ينظر وراء نقاء جمال ليلي الخدّاع، يرى حقيقتها التي لا تعدو كونها صاحبة مشاريع نهمة وضمير لا يتورع عن شيء. كما أنها دوماً مستعدة للإدلاء بالأكاذيب. حتى أنها ذات مرة، كانت من الغباء بحيث

كذبت عليه، وبهذا أدانت نفسها بلسانها.

قالت له معنّفة: «ساورني شعور بأنك لا تصغي إلى ما أقول، مع أنه بالغ الأهمية. إذا كانت تلك المدفوعات التي تقول إنها لم تُسدّد أبداً...».

فقال متهجّماً: «أنا أعلم أنها لم تُسدّد فهل علينا أن نتابع الحديث عن الموضوع نفسه؟».

ـ حسناً، إذا كانت لم تدفع، فلا بدّ أن خطأً جسيماً قد حصل ومن المؤكد أنك من التفهم والصبر بحيث تدع شركة «سفريات هاريس» تصحح الوضع؟.

ـ ولماذا عليّ أن أكون صبوراً؟.

وألقى عليها نظرة مجرّدة من أي عطف إنساني.

ـ تحلى البناؤون الأتراك بالصبر فسلبتهم شركة هاريس حقوقهم. فهل نفعهم هذا كثيراً؟

ـ لم أعهدك بهذا الشكل...

تمتمت ليلي بهذا وقد ازداد شعورها بالصدمة للتغيير الذي أصابه. هل كان رؤوف دوماً بهذه البرودة والقسوة وانعدام الشعور؟ هل كانت مجرد تصورات منها حين كانت تظنه بالغ الحساسية؟.

وحاولت من جديد التقرب منه: «أنا لا أطلب سوى بعض الوقت».

فقال بشكل حاسم: «كلا. لقد ضيّعت ما يكفي من وقتي».

ـ اسمع، أنا لم أحضر إلى هنا مستعدة لهذا الوضع الفظيع!.

ارتفع صوتها على الرغم من الجهد الذي بذلته لتهدئته، ثم كسا وجهها الارتباك عندما رفع رؤوف حاجبه مؤنباً.

ـ ألا تستطيع مساعدتي في هذا الأمر؟

ليلي تتوسله... أعجبته الفكرة رغم أنه كان يريد أن يقطع علاقته بسفريات هاريس ويزيل من رأسه كل ما يذكره بها. ولكن، من باب التسلية، هل يستمر بالمراوغة والاستماع إلى قصصها المضحكة

وأعذارها؟ ما الذي سيكتشفه؟ أنها وأسرتها مجموعة من اللصوص؟ وليس أي لصوص، إنما لصوص متهورون لا يتحلّون ببعد النظر ولا يدركون أن أكاذيبهم لا بد أن تنكشف؟ ثم ذكر نفسه بأن صحفه الخاصة حافلة بالقصص عن أمثال أولئك المحتالين الحمقى الذين عجزوا عن مقاومة الإغراءات بصرف النظر عن النتائج.

عندما أحست ليلي أنها استحوذت أخيراً على انتباهه، عادت فدفعت المستندات إليه:

ـ أرجوك راجع هذه... ويمكنني أن أقطع لك وعداً أكيداً بأنك ستحصل على تعويض. مهما حدث فقد بنى بريت منزلين فخمين قرب «داليان»، وعليّ أن أرتّب أمر بيعهما. لدى «سفريات هاريس» بعض المقتنيات النافعة.

أعلنت له هذا بقنوط بالغ.

ولكن أهم تلك المقتنيات هي أمامه الآن، كما أخذ رؤوف يفكر وهو ينظر مباشرة في عينيها الزرقاوين الضارعتين، وقد تملّكه نوع من العجب والغضب معاً.. كيف جرؤت على إخباره بكل تلك الأكاذيب؟ كيف أمكنها أن تظنه سيوافق على هذا الاجتماع دون أن تضع كل الحقائق تحت تصرفه؟ لقد أثبتت له أكاذيبها أنها خداعة ماكرة. وقرر رؤوف أن يعاملها بشكل أكثر خشونة.

زاد القلق من توتر أعصابها، وقد رأت مدى جموده، ولفتت اهتمامها عيناه نصف المغمضتين. بدأ بسحب المستندات التي كان قد رفض رؤيتها سابقاً، مرسلاً دفعة من الأمل في كيانها، قائلاً بصوت غامض عميق أرسل تشعريرة غريبة في ظهرها: «أنا لا أعدك بشيء».

ـ آه لا. كلا بالطبع.. لا أتوقع ذلك الآن.

أسرعت تطمئنه وقد ارتاحت نسبياً لليونته المفاجئة وشعرت بأنه سيكون أكثر تعاطفاً بعد أن يراجع تلك الأوراق.

ـ لكن الوقت الذي سيستهلكه هذا العمل الشائك له ثمن.

اقترب رؤوف من اللحظة الحاسمة، وشعر بأنه يستمتع في جعل ليلي تمتثل لرغباته، بينما يبقيها هو في حيرة وقلق. ألم تفعل هي به الشيء نفسه ذات يوم؟ لا يزال يتذكر عبثها المتعمّد بأعصابه في ذلك الصيف، فكانت تارة متحمسة لكي تبقيه متعلقاً بها، وطوراً خجلة لكي تقنعه بأنها بريئة. لكنه الآن هو المسيطر.

ـ ثمن..؟.

قطبت جبينها وقد تملكها التردد والارتباك، وخفق قلبها وهي ترى لمعان نظراته الآسرة.

أعاد رأسه المتغطرس إلى الخلف كصياد يترقّب انطباق الفخ على طريدته.

ـ في هذا العالم، كل شيء له ثمن.. ألم تعرفي هذا بعد؟.

ـ لست واثقة من أنني أفهمك..

قالت هذا وقد توتّرت ملامحها أمّا هو فقد خفّفت ابتسامة خفيفة ساخرة من ظلمة ملامحه.

ـ الأمر بسيط للغاية. إذا كان عليّ أن أراجع هذه المستندات بالتفصيل، سأكون بحاجة إلى معونتك.

زال تقطيبها لقوله هذا، ومالت إلى الأمام بشيء من اللهفة وقد تألقت عيناها الزرقاوان:

ـ بكل تأكيد... هذه ليست مشكلة. كيف سيكون ذلك؟.

ـ أنا هنا في «بودرام» لعدة ساعات فقط، لأن لدي اجتماعاً مع مجلس الإدارة في اسطنبول غداً. سأعود بالطائرة إلى هناك هذا المساء، وفيما بعد سأذهب إلى ضيعتي في الريف وأقترح أن توافيني إلى هناك وتمكثي عدة أيام. فمن الأنسب أن تكوني قريبة لكي تجيبي على أي سؤال قد يخطر لي.

أثناء إلقاء رؤوف تلك القنبلة، كانت هي تفتح فمها وتطبقه، وكأنها على وشك الكلام، لكنها في كل مرة تجد نفسها معقودة اللسان. كان

تصور نفسها ضيفة في بيت رؤوف يثير أعصابها. على كل حال، في هذه الظروف يبدو طلبه هذا معقولاً، فهي لا يمكن أن تتوقع منه الذهاب بالطائرة إلى الساحل لأجلها فقط.

وأخيراً قالت متوترة: «لا بأس».

لم يكن لدى رؤوف شك في قبولها، وارتباكها الواضح لم يدهشه على الإطلاق. فهي طبعاً، لا يمكنها أن ترفض فرصة سنحت لها لتراقب مراجعته للمستندات فهي خائفة من أن يجد دليلاً يورّطها في جرم ما، حتى أنها ربما كانت ترجو أن يساعدها الحظ على دفن ذلك الدليل مرة أخرى. وفي الوقت نفسه عليها أن تتابع التظاهر بالبراءة. وقبل أن يأخذها إلى «سونغول» يجب أن يزور المنزلين اللذين عرضتهما عليه كتعويض عن حصته. فحتى لو كانت من أمهر الكاذبين، لن يمكنها أن تنجو مما ينوي أن يواجهها به!.

سألته بعدم ارتياح: «متى تريدني أن أذهب إلى بيتك؟ هل هو بعيد من هنا؟».

ـ نعم. ولكن لا تقلقي. سيأتي أحدهم ليأخذك من فندقك غداً صباحاً عند الساعة الحادية عشرة، سأقابلك في المطار ثم نذهب إلى «سونغول» معاً.

تأمل امتلاء شفتيها الناعمتين الورديتين، فتصور تلك المرأة المغرية في بيته القديم الذي لم يأخذ إليه امرأة قط. أتراه سينتهز.. أو لا ينتهز فرصة لهفتها الحالية لإرضائه؟ لكنه قرر بحزم أنه لن يفعل هذا. لن يأخذ امرأة إلى بيته بمثل هذه الشروط الحقيرة.

ـ شكراً. أقدر لك هذا.

واكتسحت بشرتها الناصعة موجة وردية. في هذا الجوّ المتوتّر جفّ حلقها وتسارعت أنفاسها. ولاحظت ما تملكها من إثارة، فشعرت بالخزي من ذلك، ولكن ليس إلى الدرجة التي كانت عليها ذات يوم عندما كان تجاوبها معه يخيفها ويسبب لها الاضطراب. وذلك لم يكن ذنب رؤوف،

بل ذنبها هي.

شعر رؤوف بالانزعاج عندما راودته تلك الصورة الممنوعة لليلي، وبدا العبوس على وجهه القوي. لقد خدعته، وعندما يحصل على البراهين الضرورية، سيسلمها إلى الشرطة.

سيفعل ما هو صواب ولن يدع سحرها يتغلب عليه. فهو لا يستطيع أن يفرّق بين معاملته لليلي وبين أي شخص آثم آخر. ستكتشف أنها لم تفعل سوى التعجيل بعقابها. والأسوأ من ذلك أنها تفعل هذا في بلاد ذات قضاء متشدّد أكثر من بلادها بكثير.

حفر ذلك القرار في ذهنه كنقش الحجر. ونهض على الفور وعيناه المتألقتان باردتان كجبل صقيع:

ـ عليّ مع الأسف، أن أنهي اجتماعنا هنا، لأن لديّ موعداً للغداء.

شعرت بالإحباط لتلك النهاية المفاجئة لاجتماعهما، فوقفت بسرعة. وعندما نظرت إلى حيث كان ينظر بعبوس، رأت امرأة عجوز فضية الشعر تحمل عصا وتتقدم نحوهما وبجانبها فتى يساعدها.

صرف رؤوف بأسنانه حين اقتربت أم جدته بعزم نحوه. لا بد أن أحد مستخدمي الفندق زل لسانه وكشف أن موعده هو مع شابة أجنبية رائعة الجمال. هذا الاكتشاف المثير كان كل ما يلزم لكي تنزل السيدة إلى الطابق الأرضي لترضي فضولها.

ـ السيدة كازابيان تقول....

نظر موظف الفندق، الذي كان يقوم بدور الدليل والمترجم للسيدة العجوز، إلى رؤوف معتذراً قبل أن يلتفت إلى ليلي قائلاً:

ـ السيدة كازابيان تقول إن ثوبك جميل جداً.

طرف رؤوف بعينيه، ثم أخذ يتأمل ثوب ليلي الفضفاض. وافترض أن ثوباً محتشماً كالذي ترتديه هذه الآنسة الخلاّبة هو مناسب تماماً في نظر أم جدته.

لقد قامت الأسرة بأكملها بمراعاة أحاسيس الجدة «نور الصباح»

وحمايتها من مظاهر الانحلال الأخلاقي الصاعق في هذا العالم. ولحسن الحظ أنها لم تكن تشاهد التلفزيون أو حتى تقرأ الصحف لأنها تعتقد بأن زوجها الراحل ما كان ليوافق على انخراطها في هذه النشاطات.

ـ يشرّفني أن أقدّمك إلى أم جدتي «نور الصباح»... ليلي هاريس.

قام رؤوف مكرهاً بمهمة تعريف إحداهما بالأخرى، لكنه تكلم إلى المرأة العجوز التي لا يكاد طولها يصل إلى صدره، باللغة التركية وبنبرة رقيقة ليّنة.

بادلت ليلي ابتسامة السيدة كازابيان العريضة بقولها:

ـ أرجوك أن تخبرها بمدى سعادتي في التعرف إليها.

وضعت «نور الصباح» يداً هشة على ذراع رؤوف القوية وأخذت تثرثر بالتركية، بينما أشار رؤوف خفية للمترجم بأن يخلد إلى الصمت بينما كانت جدة أمه تقول بحماسة:

ـ السيدة ليلي لديها ابتسامة حلوة، وقد أعجبني ما في وجه هذه الشابة. هل تودّ أن تأتي معنا إلى الغداء لتخبرنا عن نفسها وأسرتها؟.

حاول رؤوف ألا يجفل لمجرّد التفكير بما قد يحصل إذا احتكت ليلي بفرقة الاستنطاق المتسلطة، فاستأذن من ليلي، ثم أمسك بالمرأة العجوز يعيدها إلى المصعد. وإذ رأت ليلي العطف الذي جعل عينيه المذهلتين تنفحان حناناً، حوّلت نظراتها بعيداً، متألمة من المقارنة بين حنانه هذا وسلوكه الخشن معها.

لكنها عادت فذكرت نفسها أن ما يجمعهما أمور عملية وليس علاقة شخصية. من الواضح أن ذلك العقد مع «سفريات هاريس» هو الذي أفسد الأمور. أترى كان بريت هو المسؤول عن ذلك؟ وعلى الرغم من أن ليلي تكره زوج أختها السابق، إلا أنّ أختها وأباها كانا متأثرين به جداً، ليس فقط بالكفاءة التي كان يدير بها عمل الأسرة ولكن أيضاً بسبب الساعات الطويلة التي كان يمضيها في العمل. قد تكون أرباح الأسرة انخفضت إلى درجة مفزعة، لكن أحداً لم يلم بريت لهذا الواقع. وعلى كل حال، لم

يكن ذنبه إن كانت وكالات سفريات أخرى منافسة قد نشأت في المدينة نفسها. تملك ليلي الضيق وهي تدرك أن رؤوف لم يلن إلا بعد أن أخبرته بأمر المنزلين المعروضين للبيع. ماذا كان ليحدث لو أن هذه المدفوعات أدخلت إلى حساب غير صحيح لا يمكن اقتفاء أثره ولا استعادته؟.

وإذا كانت النقود الناجمة عن بيع المنزلين ستذهب إلى رؤوف وليس إلى «سفريات هاريس»، فهل ستبقى هيلاري قادرة على البقاء في العمل؟ قررت أن تنتظر ريثما تحصل على الحقائق المؤكدة، قبل أن تطلع أختها على آخر الأخبار. أجفلت عندما عاد رؤوف إلى جانبها. ورافقها إلى خارج الفندق، مخففاً من سرعة خطواته ليجاريها في السير:

ـ ستعيدك سيارتي الليموزين إلى الفندق.

وقفت على الرصيف واسترقت النظر إليه وقد تملكتها الرهبة والانزعاج لجفائه من ناحيتها، ثم سمعت نفسها تسأله باندفاع:

ـ إذا وضعنا العمل جانباً.. ألا يمكننا أن نبقى صديقين؟

عندما التقت عيناه بعينيها الزرقاوين الرائعتين، هاجت السخرية في كيانه لهذا الالتماس، وقست ملامحه الجميلة، واشتعلت عيناه بلون الذهب. لقد أثار غيظه أنه في يوم من الأيام، كان يصدق كل جملة رقيقة عاطفية تقولها:

ـ أنا لست في الخامسة من عمري ولا أنت.

توهّج وجهها ارتباكاً وانكمشت بسبب لسانها المتهوّر.

ـ ومع ذلك، أنا أكره أن أخيّب أمل امرأة.

قال هذا بصوت رقيق منخفض وهو يمد يديه يجذبها إليه في نوبة غضب بحيث لم يتساءل عما يفعله.

أجفلت لهذا العناق الذي سمرّها وأخذ قلبها يخفق بجنون، وهي تشهق: «رؤوف...؟».

ازداد اشتداد ذراعيه حولها وأحسّ بمشاعره المكبوتة تنفجر فجأة، كبركان بقي خامداً لثلاث سنوات. أمّا هي، فتجمدت على الفور مذهولة،

ثم، ومن دون وعي منها، تطاولت على أصابع قدميها وأحاطت عنقه بذراعيها. ثم مالت برأسها إلى الخلف، تاركة إيّاه يتنشق عطر شعرها المموّج.

وبشكل مفاجيء تركها في دوّامة من الاضطراب. وقد اصطبغت وجنتاه بلون الحمى، بينما بدا عليه الفزع لما قام به. دون اعتبار لما حوله أولاً، وللتشجيع غير المتوقع الذي بدا منها، ثانياً. لقد عانقها في الشارع على مرأى من الجميع... ما الذي حدث له؟.

احمرّ وجهها وركزت اهتمامها عليه بعينين ذاهلتين. لقد مكثت بين ذراعيه من دون خوف. فلا بد إذاً أن ذهابها إلى الطبيب النفسي في العام الماضي قد نفعها وأزال من نفسها ذاك الخوف.

ـ لن يتكرر هذا.

قال رؤوف هذا بصوت جليدي وهو يفتح بعنف باب سيارة الليموزين الفضية الفارهة التي كانت تنتظر عند زاوية الطريق:

ـ ليس بيننا شيء الآن.

ولماذا عانقها إذن؟ صعدت إلى السيارة وهي تشعر بالارتباك والمهانة... متمنية لو أنها دفعته عنها بعيداً، رغم أنها لم تفعل سوى أنها أحاطت عنقه بذراعيها. شعرت بالسخط من نفسها. إنها في الرابعة والعشرين من عمرها وما زالت، كما يبدو، غير ناضجة كالمراهقات.

ولكن من يستطيع أن يتنبأ بأنها، من بين كل النساء، يمكن أن تكون مذنبة لتشوّقها إلى رجل يعجبها.

عندما وصلت سيارة رؤوف إلى فندقها في «غاميت»، كانت ليلي شاحبة متوترة، وبعيدة ذهنياً عن اجتماعها ذاك. وقد استغرقتها الذكريات.

عندما تزوجت هيلاري بريت كانت ليلي في الثانية عشرة فقط، وقد ابتهجت لقيامها بدور الاشبينة. لاسيّما أن هيلاري كانت غارقة في الحب، وسعيدة لأن بريت رغب في أن ينتقل للعيش مع الأسرة بدلاً من أن يأخذها إلى بيت آخر. وقد تأثر أبوهما بذلك أيضاً، خصوصاً وأن بريت كان يبدي

دوماً الاحترام للأب وينزل عند رأيه. وبعد ذلك بسنة، تنازل الأب عن المنزل لابنته وصهره مناصفة.

بعد سنتين فقط، وعندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها، رأت ليلي بريت للمرة الأولى مع امرأة أخرى. كانت ليلي قادمة إلى البيت من منزل صديقة لها، فعبرت موقف سيارات في ضاحية المدينة. ورأت سيارة بريت الرياضية متوقفة هناك وفي داخلها ظل يتحرك، فأسرعت نحوها ظناً أنه سيوصلها معه، لكنها رأت بدلاً من ذلك، صهرها في عناق محموم مع امرأة غريبة. دمّرها ذلك المنظر، لكنها حمدت الله على أن المذنبين لم يرياها. وكانت من الكدر بحيث أخذت تطوف المدينة عدة ساعات قبل أن تتمكن من العودة إلى البيت.

طوال حياتها، كانت ليلي تحدث هيلاري بكل شيء. لكن ما رأته في ذلك اليوم ربط لسانها، فلم تفضِ إلى أختها بتلك الخيانة، لأنها كانت تعلم أن هيلاري تعبد الأرض التي يسير عليها زوجها الوسيم. كما أنها كانت حاملاً بطفلتها الثانية. أمضت ليلي أسابيع من العذاب وهي تفكر في ما عليها أن تفعل، قبل أن تقرر أخيراً أن تسرّ بذلك إلى أبيها وتضع الأمر بين يديه.

لكن الأب لم يتصرف أبداً كما ظنته ابنته المراهقة سيفعل. بل قال لها معنفاً بسرعة وغضب:

ـ أنت مخطئة.

ـ لكنني رأيتهما... كان بريت وكانت تلك سيارته.

ـ إياك أن تتكلمي عن هذا الأمر مرة أخرى، وإياك أن تنبسي بكلمة من هذا الهراء لأختك! زواج بريت وهيلاري سعيد للغاية. ما الذي حدث لك لكي تؤلفي مثل هذه القصة الخبيثة عن صهرك؟.

أما هي، فقد تملكها الاضطراب البالغ وهي ترى أباها اللين الطباع يتصرف بهذا الشكل. لكنها لم تعلم إلا بعد فترة أن أباها السيء الحظ كان قد أنفق الكثير على زواج هيلاري، بحيث لم يستطع أن يواجه بسهولة

احتمال ألاّ يكون بريت ذلك الرجل الممتاز المستقيم الشريف الذي كان يظنه. وكيف كانت ستعلم أن قلقه لما سمعه منها جعله يذهب إلى بريت ليحذره من أن هناك من رآه في موقف السيارات ذاك؟.

أدرك بريت من الذي رآه. وعصر ذلك النهار، أحضر ليلي من المدرسة وأخذ يهددها ويخيفها بغضب بالغ. ومنذ ذلك الحين تبدّدت ثقة ليلي في الرجال ممن حولها، وكذلك بسعادتها المنزلية.

هدر مزمجراً وهو يندفع بسيارته إلى موقف السيارات في حركة إرهابية، سرعان ما كشفت لها حقيقة شخصية بريت غيلمان:

ـ أيتها العاهرة الحقيرة! عليك، من الآن فصاعداً، أن تهتمي بشؤونك الخاصة القذرة. ألم تسمعي قط بالقرود الثلاثة الحكيمة: «لم أسمع ولم أقل ولم أر»؟ إن لفّقت عني الأقاويل مرة أخرى، لن يعود لك مقام في هذا البيت. سأخبر هيلاري أن أختها الصغيرة التي نضجت قبل الأوان تحاول أن تغويني. وستصدقني أكثر منك.

عرفت ليلي عند ذلك، ما معنى أن يعيش المرء بخوف. فاستياء بريت منها جعله يصمم على معاقبتها لكشف أمره أمام أبيها دوغلاس هاريس. ابتهج بسلطته عليها، وسرعان ما صمّم على نوع المعاملة التي تهدد أمنها بعيداً عن نظر أختها وسمعها. فبدأ ينظر إلى مستديرات جسد ليلي بطريقة تجعل جلدها يقشعر، ثم يسخر منها بتعليقات غير مهذبة. في الواقع، لم يلمسها قط لكنها عاشت في فزع دائم من أنه ربما يفعل قد ذلك.

وإلى أن هربت ليلي من البيت إلى الكلية لدراسة مهنة التعليم، في مكان بعيد جداً، كان بريت قد جعل منها فتاة خجولاً متحفّظة، تغطي كل إنش من جسدها وقد تملكها خوف حقيقي من اعتداء الرجال والاتصال الجسدي عامة.

استيقظت من ذكرياتها عن تلك المرحلة التعيسة من حياتها والعرق يتصبب منها. وعندما ذهبت لتستحم في غرفتها، أخذت تذكر نفسها بأن ذلك الكابوس كان في الماضي. ومع ذلك، كان أكثر ما أسفت له هو أن

بريت قضى تقريباً على كل أمل لها في إنشاء علاقة طبيعية مع رؤوف كازابيان في بداية معرفتها به.

وها هي بعد سنوات ثلاث، تجد رؤوف عدائياً بارداً جافاً بشكل لم تتصوره يوماً، ما جرحها وجعلها ضعيفة للغاية. وأدركت ليلي بخجل أنها مستعدة للقيام بأي شيء لكي تحصل على فرصة أخرى معه. لكنه أوضح لها أن لا نيّة لديه بأن ينشىء علاقة معها مرة أخرى.

هل بإمكانها أن تلومه لذلك؟ أخذت تتساءل وهي مستلقية في سريرها تلك الليلة. ولكن رؤوف كان لطيفاً معها عندما وصف ما حصل بينهما بأنها علاقة لم تكتمل قط. وقد أدركت متأخرة أنّه كان بإمكانه أن يستخدم عبارات أكثر إيلاماً.

* * *

٣ ـ ذكريات مرّة

في الصيف الذي تلا إنهاء ليلي سنتها الثانية في الكلية، عملت مؤقتاً كنادلة في مقهى عصري في لندن، بينما كانت تبحث عن عمل في حضانة الأطفال.

ترددّت في الأسبوع الأول في الذهاب إلى العمل، لأنها لم تستطع أن تتحمل تلك المداعبات التي كانت تتحملها النادلات الأخريات من الزبائن. وعلى كل حال، كان راتبها مع «البخشيش»، كافياً لدفع أجرة الشقة الصغيرة التي استأجرتها مع فتاة أخرى، تجنباً للعودة إلى بيتها والعيش مع بريت تحت سقف واحد.

ـ أوه، الرجال الرائعون لا يأتون إلا برفقة النساء!

قالت أنابيل شريكة ليلي في الشقة هذا متفجّعة، بينما كانت تقفان عند منضدة البيع تنتظران طلباتهما.

تأوّهت ليلي، وهي التي اعتادت على تذمر أنابيل من ندرة رؤية رجال وسيمين أحراراً دون نساء وسألتها:

ـ من لاحظت الآن؟.

ـ ذاك الرجل برفقة تلك السمراء ذات الثوب الأبيض المثير.

نظرت ليلي، فرأت رجلاً فارع الطول، قوي البنية، وجنتاه مرتفعتان وأنفه قوي وشعره كث أسود. كل ذلك جعله يتميّز عمن حوله. وكانت ليلي على وشك أن تحوّل نظراتها عنه عندما ألقى برأسه المتكبر إلى

www.liilas-romancia.com

الخلف. فلحظت عينيه غير العاديتين اللتين امتزج فيهما اللونان الذهبي والبني، فبدتا أشبه بمغناطيس يأسر الناظر إليهما. لم تستطع ليلي أن تشيح بنظرها عن تلك العينين الرائعتين، وقد ازدادت خفقات قلبها وتسارعت أنفاسها وتوتر جسمها كله. وإذا بنظراته تشتبك بنظراتها، فشعرت فجأة بشيء أشبه بالنار يسري في عروقها.

أخذت أنابيل تنظر إلى رؤوف وهو يقيّم جمال ليلي المتألق:

ـ قد لا ينتبه إليّ الرجال، لكنهم حتماً ينتبهون إليك، لذا يجب أن تضعي شارة على صدرك تقول: (أنا شاذة لا أحب الرجال). إنها، على الأقل، تمنع الرجال من تضييع وقتهم معك، وتعطي فرصة لنا لنحصل على نظرة!.

ذُعرت ليلي لما يحويه هذا التذمر الساخط من معنى، فعادت بانتباهها إلى أنابيل:

ـ قولي ذلك مرة أخرى..

فهزّت أنابيل كتفيها: «حسناً، ألست كذلك؟ ربما لم يظهر ذلك عليك بعد، لكن طريقة شعورك نحو الرجال تُظهر ذلك بوضوح تام. لقد تكهّنت أنا بذلك منذ دهر».

ـ أنا لست شاذّة....

ردت عليها ليلي بذلك بحدة، بينما كانت أنابيل تحمل صينيتها المثقلة وهي تقول عابسة:

ـ اسمعي، هذا ليس من شأني، وما أنا إلا فتاة غيور من جمالك.

ارتجفت ليلي وهي ترى أن الفتاة التي عرفتها مدة سنتين تسيء فهمها بهذا الشكل. ثم ذهبت لتخدم رؤوف. لم تنظر إليه أو إلى مرافقته ولو مرة واحدة. لكنها، حتى في حالتها الحاضرة من التوتر، استطاعت أن تلاحظ طريقته في الحديث واللكنة الخفيفة التي تخالط إنكليزيته الممتازة. وحدثت الكارثة عندما كانت ليلي تقدم لها الشراب. فعندما حاولت أن تضع كأس العصير على المائدة، رفعت السمراء يدها تختطفه من يد ليلي

فجأة، وإذا باليدين تتصادمان، ويسقط الكأس ساكباً شلالاً من السائل على ركبتي المرأة.

ـ أيتها الحمقاء.

صرخت المرأة ثائرة وكأنها تعرضت لهجوم متعمّد:

ـ ألا يكفي توجهك أولاً إلى رجلي، حتى أنك أردت أن تتلفي ثوبي أيضاً؟.

أسرع رب العمل بالحضور، وقدمت ليلي اعتذارها الذي قوبل بالتجاهل، بينما تمنّت هي تنشقّ الأرض وتبتلعها لما شعرت به من ضيق وخيبة أمل. وضع رؤوف ورقة مالية على المائدة وساق رفيقته خارجاً بها بسرعة. لم تتوقع ليلي أن تراه مرة أخرى قط. ولكن في اليوم التالي، عندما عادت إلى عملها، كان بانتظارها باقة أزهار رائعة مع بطاقة تقول:

«آسف للإحراج الذي أصابك أمس. رؤوف».

وقال رئيسها بسخرية ذكيّة: «عندما ينفق رجل حوالى مئة جنيه على الأزهار، فهذا يخبرني بكل تأكيد، من الذي جاء وإلى من».

كانت بحاجة إلى جهد بالغ لكي تصد هذا السيل من الذكريات التي تؤرقها. لماذا تراودها دوماً ذكرى علاقتها برؤوف، في حين أنه تركها خلفه منذ وقت طويل؟ تملكها الغضب لضعف إرادتها، وقالت لنفسها بأن عليها أن تكبر.

في الصباح التالي جاء رؤوف على متن طائرته الخاصة، بعد نصف ساعة من وصول ليلي إلى المطار.

أخذت تنظر إليه وهو يخرج من الطائرة ثم يصعد الدرجات بخطوات ليّنة ثابتة. بدا بالغ الثقة بنفسه ببذلته الرمادية البالغة الأناقة، ما جعله يبدو مذهلاً لا يُقاوم.

كانت ملامحه البرونزية تعكس كل إمارات السلطة في شخصيته القوية. تبادل كلمات ضاحكة مع الضابط الذي كان في انتظاره ليستقبله، ثم عاد إلى جموده ووقاره، وهو يوجه نظرات باردة إلى ليلي التي كانت

تنتظره داخل المبنى.

قيل لها: «يمكنك أن تذهبي إليه الآن، يا آنسة هاريس».

أخذ رؤوف ينظر إليها وهي تتجه نحوه، مرتدية ثوباً أزرق اللون وسترة، لا بد أنها تسبب لها الضيق في حرّ منتصف الصيف هذا. بدا شعرها الذهبي متألقاً تحت أشعة الشمس. وبدت ليلي له صغيرة السن للغاية.

شعر بدافع جنوني يحثه على أن يطلب منها أن تعود وتستقل أول طائرة إلى وطنها.

كان لون خفيف يصبغ وجنتيه، بينما كان فكّه مطبقاً بصلابة. لو كانت رجلاً لما تردد في ذلك. لكنه فقط يفعل بها ما فعلت هي به ذات يوم. يغريها بالسير في طريق يبدو آمناً، حتى اللحظة الأخيرة.

ماذا ستفعل عندما ترى نفسها غارقة في هاوية الجحيم، بينما تنتظرها الشرطة في الناحية الأخرى لتلقي القبض عليها؟.

لم يستدع الشرطة حتى الآن، ولم يذكر لهم هويتها، لكن رجال الدرك في القرية لديهم ملف جاهز بالقضية. بالإضافة إلى أن رؤوف قد اكتشف أن ليلي مسجّلة بصفتها مديرة «سفريات هاريس» على أوراق رسائل الشركة، وبهذا فهي مسؤولة قانونياً. ولكن ما كان رؤوف يريده أكثر من أي شيء آخر، هو رأس بريت غيلمان على طبق.

وعندما أصبحت ليلي بجانبه تمتمت: «الجوّ حار».

فأجاب: «ومن المحتمل أن يزداد حرارة».

ووضع يده على ظهرها بخفّة فقط، ليوجهها نحو طائرة الهليكوبتر التي تنتظر.

- هل الرحلة طويلة؟

- تستغرق حوالى ساعة. سنتوقف خلالها في الطريق.

ومن دون تردد، غيّر الموضوع:

- كيف تمضين وقتك هنا حتى الآن؟.

- إنني أتأقلم. في الأسبوع القادم، سأوقع على كل عقود الرحلات، وأرى كل المعالم والمشاهد التي تستحق الرؤية. هيلاري تأمل في تنظيم رحلات سياحية خاصة في الربيع.

وتلاشى صوتها تدريجياً عندما أطبق رؤوف بيديه على خصرها ثم رفعها إلى الهليكوبتر، وكأن وزنها لا يتجاوز وزن طفل.

- شكراً.

وعندما استقرّ بجانبها وأشار إلى الطيار، ابتدأ المحرّك يهدر. حاولت ليلي أن تشدّ حزام مقعدها حولها لكن رؤوف مال عليها يساعدها، فأجفلت. وارتفعت عيناها الزرقاوان بتردد لتشتبكا بعينيه الذهبيتين المتأملتين. سقطت يداها عن قفل الحزام وتركته له. وعندما أحنى رأسه احتك شعره الأسود بذقنها. وإذ شمت رائحته الدافئة المألوفة، ارتجفت وعضت شفتها شاعرة بإحباط مؤلم.

وتملّكتها صدمة قوية وهي تشعر بعمق شوقها إليه. وفي وسط هذه اليقظة الجنونية، لم تعد تعرف نفسها. ما الذي يجعلها تتخدّر إلى هذا الحدّ؟.

جفّ حلقها، ولوت أصابعها كيلا تتحرك، ولم تعد إلى التنفس إلا بعد أن عاد ليستقر في مقعده.

بقيت طوال الرحلة تنظر إلى الخارج من خلال النافذة، إلى البحر الفيروزي الرائع المرصّع بالجزر، وإلى الصخور الشاهقة والشواطىء الرملية. وعندما أصبحت السواحل خلفهم، رأت أنقاض قصر مبني على صخرة عالية، تحيط به غابة صنوبر ضبابية، كما رأت طريقاً ترابياً يمتد أميالاً عبر حقول مزروعة وبساتين فاكهة ومجموعات سكنيّة نائية. فتذكرت ما أخبرها به رؤوف بأن الأسر القروية تحافظ دوماً على جذورها.

بعد المناظر الهادئة الرائعة الجمال للأرياف التي لم تتشوّه بعد، فوجئت ليلي بمنجم فحم عندما ابتدأت الهليكوبتر تهبط.

ذكر لها رؤوف من قبل أنهم سيتوقفون في الطريق. ربما تقوم إحدى

صحفه أو مجلاته بوضع تقرير عن المنجم كما ظنّت ليلي.

قفز رؤوف من الطائرة ثم استدار ليأخذ بيدها. وسارت هي على أرض قاحلة فرأت أمامها طريقاً ترابياً. ونظر هو إليها بعينيه الذهبيتين:

ـ أتعلمين أين أنت؟.

هزّت رأسها وهي تفكر في ما يجعله يظنها تعلم: «ليس لديّ فكرة».

ـ ستعرفين خلال وقت قصير.

عبر بها إلى طريق خاص معبّد على جانبيه مصابيح جميلة ومدخل هو حقاً آخر ما يتوقع الإنسان أن يراه على طول ياردات من هذا السياج الذي يحيط بالمنجم.

وقطبت ليلي جبينها: «هل تسكن هنا؟».

ـ حتى سكان المنطقة لا يسكنون بجانب المناجم. من يحب أن ينظر من نافذته ليرى أكوام مخلفات صهر المعادن؟

قال رؤوف هذا ساخراً. فأحسّت ليلي بالازدراء الذي يحفّ بكل جملة يقولها، والتحدّي الغريب في نظراته. وتملكتها موجة من التوتر.

بادلته التحديق وقد تصلّب جسدها الرشيق. وواجه هو هذا التقييم بثقة، فاحمرّت وجنتاها. لأنه وإن كان يبدو رهيباً في مزاجه الحالي، لكنه أيضاً يبدو رائعاً للغاية. وهذه الحقيقة ما زالت تفسد قدرتها على التركيز.

ثم اندفعت تقول وقد جفّ فمها: «ما دمت لا تسكن هنا، إلى أين تذهب إذن؟».

ـ قررت أن أفاجئك بزيارة سريعة إلى المنزلين اللذين بنتهما «سفريات هاريس».

قال هذا بجفاء فطرفت بعينيها، ثم إذا بضحكة مجفلة تصدر عنها:

ـ إذن، أخشى أنك أخطأت في العنوان، لأن المنزلين هما قرب «داليان» وهي منطقة جميلة تماماً.

عندما سكتت، أمسك رؤوف بيدها. ارتبكت لهذه الحركة، فألانت أصابعها في أصابعه، ثم تصلبت عندما سرت السخونة في ذراعها، ما

جعلها تنتبه إليه بشكل حاد.

سارا في الطريق الطويل المتعرج إلى أن توقّف وترك أصابعها:

ـ هذه هي الأرض التي اشتراها بريت غيلمان بثمن زهيد، لأن أحداً سواه لم يرغب في شرائها.

شبكت يديها ببعضهما البعض وأخذت تحدّق فيه:

ـ هذا غير ممكن... بحق الله! لا تبدو منطقة سياحية بأي شكل. أنا أقول لك إن المنزلين ليسا مبنيين هنا.

ـ بما أن أموالي هي التي موّلت المشروع، أتعتقدين حقاً أنني أقترف مثل هذه الغلطة؟.

أخذت نفساً بطيئاً مهدئاً ثم جاهدت لكي تفكر:

ـ وأنت كنت شريكاً صامتاً...

ـ تلك كانت غلطتي. لو أنني عرفت بما يجري، لما سمحت لما فعلته «سفريات هاريس» هنا بأن يحدث.

ـ ماذا تعني بكلامك (ما فعلته «سفريات هاريس» هنا)؟

سألته بضيق وتوترها يتصاعد مع كل ثانية تمرّ:

ـ لماذا لا تستمع إليّ؟ ليس هذا هو المكان الذي بُني فيه المنزلان.

ـ كفّي عن هذا الهراء.

قال هذا بعناد ونفاد صبر وقد بان التوتّر على وجهه الجبار:

ـ لديّ نسخة عن العقد الذي وقعه بريت مع البنائين في جيبي هذا، وكذلك نسخة عن عقد بيع الأرض أيضاً.

ـ لا يهمّني إذا كنت قد وضعت خزانة الملفات الرسمية كلها في جيبك!.

ردّت عليه بذلك بحدة وقد ثار طبعها فجأة، لأنها لم تفهم شيئاً مما قاله أو فعله، منذ هبطت بهما الهلوكوبتر:

ـ لديّ صور عن المنزلين عندما أوشك البناء فيهما أن ينتهي، والمنظر أمامهما يبدو خلاباً.. ولا يبدو فيه منجم فحم تعيس كهذا.

ـ لا يمكن أن تكوني قد حصلت على صور فوتوغرافية.

وأخذ ينظر إليها متأملاً، غاضباً لرفضها التخلي عن الكذب حتى أمام الأدلة الدامغة التي تواجهها.

أخذت تبحث في حقيبتها عن الصور التي كانت هيلاري قد أخبرتها بأن بريت أحضرها خلال آخر زيارة له إلى تركيا الشتاء الماضي. وجمدت ليلي لحظة وهي تجيل النظر حولها بارتباك إلى الأرض الخالية التي تنمو فيها الأعشاب، وتحيط بها من كل ناحية.

ضحكت فجأة وقد تملكها الارتياح: «لا يوجد هنا منازل حتى. لماذا لا تعترف بأننا في المكان الخطأ؟».

بينما استمر رؤوف يحدّق إليها بعجب، سارت هي إليه بشيء من الثقة وأعطته الصور.

ـ هذان هما منزلانا، يا رؤوف.

ألقى رؤوف على الصور نظرة عاجلة وهو يغلي إحباطاً.

ـ وهذه ماذا تثبت يا ليلي؟ إن أي شخص لديه كاميرا يمكنه أن يلتقط بها صوراً جميلة لبيوت شخص آخر وهي في طور البناء؟ والآن، يا ليلي، إما أن تخبريني بالحقيقة أو أضع هذه القضية في يد الشرطة.

جمدت مكانها لهذا التهديد، وأخذت تحملق فيه بذعر: «الـ... شرطة؟».

ـ «سفريات هاريس» خدعت البنّائين المحليين والمموّلين. أعطت البنائين اسماً وعنواناً مزيفين للشركة، وكذلك رقم هاتف مزوراً.

شحب وجهها وهي تقف تحت الشمس التي لا تلين، وتصببت قطرات عرق على صدرها، ثم فتحت فمها، لكن صوتها لم يخرج قبل ثانيتين أو ثلاث:

ـ «سفريات هاريس» تخدع الناس؟ لا... لا أدري ما تتحدث عنه.

زفر رؤوف بنفاد صبر: «ليس هناك منازل.. ليس هناك شيء وراء ذلك المدخل. وعليك أن تعلمي ذلك».

ابتلعت ريقها. تذكرت الآن فقط قوله لها إن لديه نسخة عن عقد بيع الأرض. من المؤكد أن ذلك برهان قاطع على أنها تقف الآن على الأرض التي اشتراها بريت. لكنها ليست الأرض التي أراهم صورها.

ـ هل أنت واثق من أن المنزلين ليسا في نهاية الطريق؟.

تمتمت بذلك وهي تنظر حولها مشوشة التفكير:

ـ أريد أن أرى عقد البيع.

مدّ رؤوف يده فقبضت ليلي عليها. وارتجف سند البيع في يدها. كان مكتوباً باللغة التركية لكنها عندما نظرت أسفل الصفحة لاحظت إمضاء بريت والأختام الرسمية. كان عقلها الآن يعمل ببطء بالغ. بدأت الصدمة تتبدد بصعوبة لكنها ظلت ترفض أن تتقبل فظاعة ما يقوله رؤوف لها.

ـ ما زلت أظن أن هذين المنزلين لا بد أن يكونا في مكان ما.. إذا نحن بحثنا. أعني ربما سلكنا الطريق الخطأ أو ما شابه. دوماً كنت تخبرني عن مدى اتساع هذه الأرياف.. لا يمكنك أن تعرف كل الطرقات هنا.

كانت تتحدث وهي ترتعش كورقة في مهب الريح. لكن رؤوف كان مصمماً على ألا يقع ضحية تمثيلها، وفي الوقت نفسه لم يستطع إلا أن يتأثر بحالة الذهول والعجز وعدم التصديق التي بدت عليها.

وعاد يقول: «ما من بيوت هنا».

فهاجمته باحتجاج: «بل لا بد أن يكون!».

فتابع رؤوف عابساً بصوت منخفض: «لقد تم شراء الأرض واستخدام العمال، ولكن بعد فترة وجيزة استلم العمال بعض المدفوعات ولم يسمعوا خبراً من صهرك مرة أخرى ولا استطاعوا الاتصال به».

جلست ليلي على صخرة تحت شجرة وارفة الظل وقد شعرت بضعف في ساقيها.

ـ قبل أن يكتشف البناؤون حقيقة الأمر، أنشأوا طريق البيت وحفروا الأساس. منذ إغلاق المنجم، لم يكن ثمة أعمال كثيرة في هذه الأنحاء، كما أن البنائين وُعدوا بعلاوات إذا ما عملوا بسرعة. وكان لدى غيلمان

سيارة كبيرة فظنّوه غنياً، وهكذا تابعوا العمل واشتروا مزيداً من المواد على الحساب، واثقين بأن المدفوعات التالية ستكون أكبر بكثير. إلا أن غيلمان لم يظهر بعد ذلك فأغرقتهم الديون وأصابهم الفقر بسبب ذلك.

تملكها شعور بالاشمئزاز والعار لما حصل. ما الذي حدث؟ وماذا فعل بريت؟ هل يُعقل أنه استعمل المال المخصص لبناء المنزلين ليُبقي وكالة السفريات مستمرة في العمل؟ إنها تكره بريت لكنها لا تستطيع مبدئياً تقبل الأمر قبل أن تتحدث مع أسرتها بشأن ذلك.

من الواضح أن بريت كذب مرة بعد مرة بشأن المنزلين. فقد أرى هيلاري وأباهما صوراً لبناء آخر، وفيما بعد أعطاهما صوراً أخرى لناحية البناء نفسها وللمنزلين الكبيرين اللذين شيّدا فيها. لم يساور الشك والدها ولا أختها، لأن مشروع البناء ذاك كان فكرة بريت منذ البداية. حينذاك كان أبوها قد تقاعد وعادت هيلاري إلى العمل في «سفريات هاريس» بعد أن خرج بريت من إدارتها، وذلك منذ أشهر قليلة فقط.. وحتى ذلك الحين، كانت يد بريت مطلقة في كل الأمور.

ما الذي حدث إذاً لكل الأموال التي يُفترض أنها أنفقت على البناء؟ لا يمكن إلا أن يكون بريت قد سرق كل تلك الأموال، ذلك أن ليس هناك بيوت في المنطقة، سوى قطعة أرض قاحلة زهيدة الثمن لا تحيط بها أيّ مناظر جميلة. ومع ذلك أخذ بريت يجادل أثناء تقسيم الممتلكات بعد الطلاق، مطالباً بحقه في نصف البيت الزوجي لأن «سفريات هاريس» ستحتفظ بالمنزلين الفخمين في الخارج. وبالإضافة إلى ذلك، استطاع بريت أن يقنع المحامين بأن هذين المنزلين موجودان فعلاً. وقد انتهت أختها المسكينة بالشكر وعرفان الجميل لأن زوجها لم يطالب أيضاً بالحق في أن يشاركهم في ملكية شركة الأسرة بعد كل تلك السنوات التي عمل فيها!.

أخذت ليلي تحدّق في الفضاء بعينين شاردتين. ليس هناك أي منزل، وهذا يعني أن استثمارات رؤوف قد فُقدت كلها. إلى أي حد يمكن اعتبار

ذلك الخلط بين الحسابين المصرفيّين حقيقياً؟ ارتجفت ورفعت يديها المسترخيتين تضغطهما على وجهها المبلل بالعرق. كان بريت يختلس أموال الشركة، كما أنه استنزف أموال «سفريات هاريس»، وستبقى أسرتها مفلسة غارقة في الديون.

أخذ رؤوف يتأمل ليلي التي كانت جالسة على الصخرة، أشبه بحورية حزينة قد سمّرتها الصدمة. بقيت نظراتها مركزة على أساسات المبنيين، وكأنها ترجو أن يقفز المنزلان منتصبين في هذا المكان أمام أعينهما.

تمتمت وهي تهزّ رأسها: «لا أستطيع أن أصدق ذلك. كيف يفعل بريت هذا بأسرته؟ أعني، لقد خسروا حتى الآن الكثير منذ الطلاق».

تسمّرت عيناه الذهبيتان الملتهبتان على وجهها الشاحب، وهي تلوم بريت غيلمان للمرة الأولى. وقال بلهجة مستفسرة:

ـ ألم يكن لديك فكرة؟

طرفت ليلي بعينيها، ورفعت رأسها الذهبي الشعر، ونظرت إليه لأول مرة منذ عدة دقائق، وعيناها الزرقاوان أشبه ببحيرتين ملفتتين للنظر وهي تحاول أن تفهم مدى كذب بريت:

ـ كيف تطرح عليّ هذا السؤال؟ أحد الأسباب الرئيسية لحضوري إلى تركيا هو أن أبيع المنزلين! لا أستطيع أن أصدق أنهما لم يبنيا من الأساس.

ـ فهمت.

وفكّر رؤوف مكرهاً أنه قد أساء الحكم عليها بهذا الشأن.

يبدو أن بريت غيلمان، بصرف النظر عن علاقته السابقة مع ليلي، قد تصرّف من دون علمها. وقد شكّل صدمة لها هي أيضاً. اكتشافها أن من كان يوماً عشيقها قد كذب عليها كذلك، وهو يغرق أعمال الأسرة في علاقات احتيالية خداعة. ولكن من ناحية أخرى، كانت ليلي قد عانت السنة الماضية من نوع آخر من العقاب، كما أخذ يذكر نفسه عابساً، ذلك أن قرار بريت الطلاق من زوجته لأجل امرأة أخرى غيرها، هي، لا بد أنه قد شكّل صفعة مؤلمة أيضاً. لكنها صفعة تستحقها تماماً، كما فكر رؤوف

دون تردد.

غصت ليلي بدمعها وضغطت على شفتيها تمنعهما من الارتجاف:

ـ لكنك كنت تعلم، أليس كذلك؟ كنت تعلم عن المنزلين حين اجتمعنا أمس؟.

ـ لم أعلم بهذا العمل المشين إلا منذ ثمانٍ وأربعين ساعة، عندما أخبرني مستشاري الاستثماري بذلك. وحيث أن لدي حصة في «سفريات هاريس»، أعطيت تعليمات بأن يُدفع تعويض كامل للأسر التركيّة التي أفلست بسبب هذه المغامرة.

حدّقت ليلي إليه من خلال عينين دامعتين.

كان بعيداً عنها تماماً، ومتحكّماً بنفسه للغاية. كبحت شهقة عجز في حلقها، وقالت بصوت مرتجف:

ـ هذا حسن، لكنني أشك كثيراً في أن تتمكن من دفع تعويض لأسرتي لخسارتها.

تقدّم منها ومدّ يديه يحيط كتفيها المرتجفتين وقال: «فلنرحل من هنا».

ـ يتملكني شعور فظيع.. وكأن الذنب ذنبي بشكل ما!

قالت هذا مستسلمة للكدر قبل أن تفلح في التحكم في نفسها مرة أخرى.

ـ وما زلت لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن يسرق بريت من أولاده. الله يعلم أنني أكرهه، لكن أبي وأختي كانا دوماً مسرورين بحدة ذهنه في العمل.

ابتسم رؤوف ابتسامة بشعة ثم أحاطها بذراعه يسندها. دموعها لن ترقّق قلبه. وبعد أن تصدّع مظهرها الكاذب، سيسرع بها وسيداوم الضغط عليها حتى يعرف كل ما يريد معرفته.

افترض أن كثيرات من النساء ينتقين ذكرياتهن إذا وصلن إلى علاقة لا يمكن الدفاع عنها، وما كان ينبغي أن تحدث. لكنه شعر بأنها مدينة له،

على الأقل، بقول الحقيقة:

ـ أنت لم تكرهي صهرك على الدوام...

ـ ليس في بداية زواجه من أختي...

ـ وليس عندما أخذتني إلى بيتكم، لكي أستثمر أموالي في شركة الأسرة بتحريض من بريت أيضاً.

قال لها هذا بصراحة خشنة.

استدارت بسرعة تنظر إليه مجفلة: «عفواً؟».

تحريض من بريت؟ كيف علم بأن بريت لعب دوراً في قرارها النهائي بأن تحضر رؤوف إلى بيتهم لتعرّفه إلى أسرتها؟.

ـ أتظنّين أنني لم أفهم في النهاية أن ذلك كان أمراً مدبراً؟.

قال لها هذا بازدراء، وهو ينظر إليها:

ـ «سفريات هاريس» بحاجة إلى مستثمر وكنت أنا غنياً. أتحاولين أن تقولي إن هذا كان مجرد مصادفة؟ أعني قرارك أن تقدميني إلى أسرتك في ذلك الوقت بالذات؟ لا أظن ذلك.

ـ هل هذا ما كنت تعتقده؟.

أفزعها هذا الاتهام. كيف فكر في أنها يمكن أن تكون أنانية وتتصرف تبعاً لمصلحتها؟.

ـ بالرغم مما يبدو أنك تظنينه، أنا لم أنزل من السماء.

فقالت له بتأنيب غاضب: «حينذاك لم يكن لدي فكرة عن مدى ثرائك، ولا كنت أعلم عن الخطط لتوسيع الأعمال، إلا بعد أن وصلنا إلى بيتنا ذاك اليوم وسمعنا معاً بريت وأبي يتحدثان. السبب الوحيد الذي أخذتك لأجله إلى بيتنا هو أختي التي كادت تموت شوقاً للتعرف إليك».

ـ يا ليتني أستطيع أن أصدقك!

قال لها هذا بصوت منخفض عنيف.

ـ هل ظننت أنني كنت ألاحقك لأجل أموالك طوال الوقت..؟.

قالت هذا والدموع تترقرق في عينيها: «وكيف تفسر تصرفي حين

أخذتك جانباً واقترحت عليك أن تفكر جيداً قبل أن تستثمر أموالك في شركتنا؟ وما أجبتني به حينذاك (هذا عمل يا ليلي أنت لا تفهمين عنه شيئاً)!».

أفحمته بهذه الذكرى المقلقة. ففتح فمه ليقول إنها كانت تريد بتحذيرها ذاك أن تبدو غير مهتمة بمصلحتها الخاصة، فيكون لذلك تأثير قويّ في حثّه على إظهار كرمه على أسرتها. لكنه في النهاية، لم يقل شيئاً. وعلى كل حال، إنه يرى الآن لدى ليلي جانباً من شخصيتها لم تسمح له من قبل برؤيته، ولم يرغب في إسكاتها. فها هي ذي تقفز هياجاً وغضباً، أمامه.

وقالت تتهمه وهي تغلي غضباً، وتصرف بأسنانها الصغيرة اللؤلؤية:

ـ وكنت أنت الذي تعرف كل شيء أليس كذلك؟ ولكن الآن وقد فشل كل شيء، جئت تلقي اللوم عليّ! حسناً، أنا آسفة، لكن الغلطة الوحيدة التي ارتكبتها معك، الشيء الوحيد الذي يجب أن أندم عليه هو أنني كنت من الغباء بحيث أحببتك!.

أنهت كلامها هذا واندفعت بجانبه مسرعة نحو الهليكوبتر فقفزت إليها دون حاجة إلى مساعدة. وعندما جاء رؤوف يجلس بجانبها، كانت قد صمّمت ألا تنظر إلى وجهه مرة أخرى، بعد أن فقدت سيطرتها على نفسها، واعترفت بأنها وقعت في غرامه في ذلك الصيف. كيف حدث أن انحدرت إلى ذلك المستوى؟ إنه لا يستحق منها هذا الاعتراف الذي يزيده غروراً.

ارتفعت الطائرة في الجوّ، وأخذ رؤوف نفساً بطيئاً ثابتاً. يستحيل أن يكون قد أخطأ في فهم الأمور إلى هذا الحدّ.. كان ماهراً أكثر مما يجب في تأويل الوقائع. ولكن ربما علاقة ليلي الحقيرة مع غيلمان كانت قد ضعفت في الوقت الذي دخل هو فيه حياتها، بل ربما كانت قد انتهت... نعم، فقد كانت تنسلّ خفية من ذلك الفندق مع غيلمان عصر ذلك اليوم لأسباب بريئة تماماً، ثم كذبت بشأن المكان الذي كانت فيه وذلك أيضاً

لأسباب بريئة.

بدت أمارات التجهّم على ملامحه الرائعة. كان غاضباً من نفسه. فقد تركها تؤثر عليه وتنسج حبالها الماكرة حوله مرة أخرى. كل ما كان عليها أن تفعل هو أن تخبره بأنها كانت تحبه فيبدأ بالشك في ذكائه!.

ولكن من ناحية أخرى، ما زال لدى ليلي تلك القوة لاجتذابه، لأنها كانت جميلة إلى حد لا يصدّق. وعندما كانت تصرخ به وتصرف بأسنانها، كان هو يراقب الشمس تصبغ شعرها الرائع بلون الذهب ويتمتع بمنظر وجهها الغاضب، متسائلاً إن كانت ستطلق العنان لكل هذا الانفعال بين ذراعيه. وتململ في مقعده محاولاً أن يخفف من ألم تلك الإثارة الدائمة التي تتملّكه. وأرخى جفنيه فوق عينيه الذهبيتين متأمّلاً. ما الذي يمنعه من أن يكتشف الأمر بنفسه؟.

وبالرغم من كل شيء، من الواضح جداً أنها إذا كانت بريئة من كل لوم بالنسبة إلى المنزلين اللذين لم يبنيا قط، من غير المحتمل أن تكون متورطة في مسألة اختلاط الحسابات المصرفية أيضاً. لقد رحل بريت من الشركة آخذاً معه، دون شك، كل الأموال. فصمّم رؤوف على ملاحقته إلى أن يُسرّ برؤيته مشنوقاً بسبب آثامه...

* * *

٤ ـ لن تفلتي

للمرة الثانية تعمدت ليلي أن تتجاهل يد رؤوف الممدودة لمساعدتها، عندما هبطت الهليكوبتر ونزلت منها وحدها.

لم تنظر حتى إليه، إذ شعرت أنه ليس بإمكانها أن تثق بنفسها إلى ذلك الحد. هذا الانفعال غير المألوف منها قد هزها من الأعماق، كما أن اعترافها بحبها لرؤوف بهذ الصورة المفاجئة جعلها تصاب بصدمة أعمق.

ـ أين نحن؟.

سألته وهي تركز النظر على ربطة عنقه الزرقاء بينما كانت الأفكار تتصارع في رأسها. لقد حسبها صائدة ثروات تسعى وراء أمواله، وربما يعتقد بأنها وأسرتها بأجمعها قد تآمروا على غشه بالاتفاق مع بريت. وقد أحضرها بالطائرة إلى ناحية البناء المهجورة هذه لكي يواجهها بمعاملة بريت غير الشريفة، ولأنه كما يبدو، لا يصدق كلمة مما تقول...

لقد استنتجت من دون أن يخبرها أحد، أن رؤوف كازابيان لا يكنّ ذرّة من العاطفة تجاهها أو تجاه أختها أو بنات أختها أو أبيها.

ـ نحن في «سونغول»، ضيعتنا الريفية..

سرت رجفة خفيفة في جسدها المتوتّر، وخشيت أن تنفجر بالبكاء. كانت تعلم أن ذلك نتيجة طبيعية للصدمة التي تلقّتها، لكنها لم تشأ أن تحقّر نفسها أمامه. بدا لها من كل النواحي أن رؤوف عدوّ لها، وعدوّ عديم الرحمة أيضاً. سيرسل الشرطة في أثر بريت. ورغم أن ليلي متلهفة

لرؤيته في السجن، إلا أنها ارتجفت لتوقّع ما سيعني ذلك لهيلاري وأطفالها.

أسرتها تعيش في مدينة صغيرة، وسكّانها لا يرحمون في مسائل الاحتيال أو الإفلاس. قد تكون هيلاري تطلقت من بريت، ولكن «سفريات هاريس» ما زالت عمل أبيها وهذا ما سيتذكره الناس دوماً. هيلاري خانها زوجها وخسرت بيتها السابق نتيجة معاملات الطلاق، وسيكون عليها الآن أن تواجه الفضيحة والعار أمام المحاكم، بالإضافة إلى أن الأسرة سوف تخسر مصدر رزقها الوحيد، كما أن ذلك سيحطّم أباها أيضاً. لأن منبع الكرامة الوحيد الذي ما زال الرجل العجوز يملكه هو اسمه وسمعته الحسنة.

عندما رافقت ليلي رؤوف في طريق مظلّل بالأشجار والأعشاب، اخترقت الصمت قائلة:

ـ لا بد أن أتصل بهيلاري. عليها أن تعلم بشأن المنزلين.

ـ لا أوافقك على أن تخبري أختك بهذا الأمر. وفي الواقع، لا أريدك أن تتصلي بأحد في إنكلترا.

نظرت مذهولة من هذا النهي القاطع، وقابلت التحدي في نظرات رؤوف الثابتة.

ـ صحيح أن أختك تطلقت من غيلمان، لكنني لا أظنها ستحتفظ بمثل هذا الخبر السيء لنفسها. فمن المحتمل أن تطلب تفسيراً من غيلمان، وأنا لا أريده أن يدرك أن أمره قد انكشف حتى تتجمّع ضده كل القرائن والأدلة.

ـ ما تريده أنت قد لا أراه أنا مناسباً لأسرتي.

ـ إذا أردتني أن أسهّل خروج أسرتك من هذا الأمر، عليك أن تفعلي ما أطلبه منك. وقد أُعذر من أنذر.

واستقرت عيناه الذهبيتان الصلبتان على وجهها المرتجف.

همست بضعف: «أنت تهددني».

ـ لا. هذا غير صحيح. أنا فقط أقول الواقع. حالياً، ليس هناك ما يجعلني أثق بأختك أو أبيك لكنّني أرفض أن أحكم على الآخرين في وقت قصير. وعلى كل حال، إذا لمحّ أحد أفراد أسرتك لبريت بهذا الأمر، إما مصادفة وإما عمداً، فقد يهرب وعند ذلك سيكون لدي سبب وجيه يجعلني أتساءل عما إذا كان هو اللص الوحيد في أسرتك.

ـ شكراً جزيلاً...

واحمرت وجنتاها، وهي تستوعب قوله هذا بخيبة أمل.

ـ عليك أن تعرفي وضعك بالضبط.

لقد فهمت ما يعنيه. إما أن تخفي الأمر عن أختها، وإما أن تدعو رؤوف إلى الشك فيها أو في أبيها، وفي تورطهما مع بريت في ذلك.

وسألته: «هل أنا رهينتك الآن؟».

وقف رؤوف، ومن تحت أهدابه الكثيفة السوداء رمقها بنظرة ماكرة، ثم سألها بصوت أجش:

ـ وهل تودّين أن تكوني كذلك؟.

تملكها الحيرة والقلق وهي تقع في شرك هاتين العينين المذهلتين، وأضاءت شعلة ضئيلة من الوعي كيانها. سلخت نظراتها عن نظراته بذعر، وركزتها على المنزل غير العادي الذي بدا لها من بعيد. بدا أشبه بلوحة زيتية فاتنة، محاطاً بأشجار السنديان المهيبة. فوقفت ليلي تحدّق به. بدا وكأنه من أبنية القرون الوسطى لأنه بدا لها مصنوعاً كلياً من الخشب.

وقال رؤوف بزهو ملحوظ:

ـ «سونغول» مقرّ كازابيان الصيفي. لقد أصلحته منذ سنتين لأفاجيء جدة أمي به.

بيت صيفي بحجم منزل فخم. وأخذت ليلي نفساً عميقاً.

ـ وطبعاً بنيت ملحقاً واسعاً في مؤخرته في البيت الأساسي، فقد كان الطهي والغسيل يتمّان في الفناء. كما أنه لم تكن فيه غرف نوم. فكان أفراد الأسرة ينامون في الغرف نفسها التي يجلسون فيها أثناء النهار.

خلع حذاءه عند العتبة ففعلت مثله. وفي أعلى السلم الملتوي في الطابق الأعلى رأت قاعة فسيحة متعددة المداخل والاتجاهات. أخبرها رؤوف أنها تدعى «باسودا». وكل زاوية من القاعة مخصصة لغرض معيّن؛ واحدة منها للطعام، وأخرى للكتب... كانت الأرض مفروشة بأرائك فخمة ووسائد وثيرة، مشكلة جلسة رائعة، بجانب نافذة تشرف على النهر الهادىء والغابات الكثيفة خلفه. خلعت ليلي سترتها وجلست هناك وقد خفف عنها ضيقها هدوء المكان وجماله.

أحضر رؤوف إليها كأس عصير، ارتشفت القليل منه فأفلح المرطب البارد في تبديد التوجس الذي كان قد أبقى أعصابها متوترة.

وضع رؤوف كأسه من يده، ثم أخذ يتأملها بعينيه الذهبيتين الداكنتين:

ـ أسأت الحكم عليك أمس. وكنت أيضاً فظاً، فظاً للغاية، وذلك ليس من عادتي، ولكنّي كنت غاضباً طيلة الوقت الذي أمضيته معك، فأردت أن أجرحك.

أومأت ليلي برأسها مجفلة وقد أدهشتها صراحته، وزمت شفتيها ثم أحنت رأسها لأن دموعها كانت على وشك الانهمار مرة أخرى. ها هي تحصل أخيراً على لمحة من ذلك الرجل الذي أحبته ذات مرة. الرجل الذي كان عنيداً مزهواً بنفسه إلى درجة لا تصدّق ها هو الآن يعترف بخطئه.. الرجل المحموم المشاعر والممتلىء رجولة والذي يمكن أن يكون مستبداً متغطرساً يذيب قلبها بابتسامة متفهمة. لكنه دون رحمة، كما أخذت تفكر بجنون وهي تغالب دموعها. ذلك أن رؤوف لم يبتسم لها قط منذ وصولها إلى تركيا.

ـ لماذا كنت تريد أن تجرحني؟.

تمتمت بذلك متوتّرة، فهي لم تجد سبباً يدفعه إلى ذلك. فهو الذي تركها من دون أن ينظر خلفه، ليمضي بعد ذلك وقت طويل وهي تتمنى لو يتصل بها، وتدعو الله قبل أن تجيب على هاتفها أن تكون المخابرة منه.

ومن ناحية أخرى، لم تنس شكوكه الحالية بها أو على الأقل، بأسرتها، بأنهم شركاء بريت في خداعه! وصرفت من ذهنها ذكرى هذا الأمر البغيض.

ضحك رؤوف بخشونة: «كيف يمكنك أن تسأليني هذا؟».

نظرت إليه ولاحظت التوتر في وجهه القوي الذي سكن أحلامها ذات يوم، وخفق قلبها.

وتابع هو بصوت خافت: «لا بد أنك شعرت بالمشاعر التي بعثتها في كياني، والتي لم أتوقّع أو أشأ عودتها... لكن تلك الرغبة بك ما زالت هنا في داخلي كما كانت في ذلك الصيف بالضبط».

ساد صمت طويل بينهما، ولم يتناه إلى مسامع ليلي سوى خرير النهر المتدفق فوق الأحجار، فحاولت جاهدة أن تستوعب ما الذي اعترف به لتوّه. أتراه يقول إنه يريدها أن تعود إليه؟ ولماذا يعترف بغير ذلك إذا كان لا يزال يرغب فيها؟ وببطء، رفعت رأسها عالياً، وقد طردت حمرة خفيفة الشحوب من وجهها الجميل، وعيناها الذاهلتان الزرقاوان تلتقيان أخيراً بعينيه العنيفتين.

وهمست وهي تهتزّ: «هل ترغب دوماً في ما تظن أنك لا تستطيع الحصول عليه؟».

ـ نعم...

اعترف بذلك بالتركية، وهزّ كتفيه كمن يسلّم بقدره.

ـ إذاً سأقول لا، لكي تزداد رغبتك بي.

لكنها أحسّت بأنها على وشك البكاء والضحك في آن معاً، وإذا بالدموع تتدفق من عينيها لتنساب كالشلال على وجنتيها وأجفلها هذا بقدر ما يبدو أنه أجفله هو أيضاً.

ـ ليلي... لا...

بعد لحظة تردد، وجد رؤوف نفسه يركع بجانبها ويمد يديه ليأخذها بين ذراعيه.

ـ آ... آسفة.

وابتلعت ريقها، لكن اعترافه أطلق دموعها المكبوتة.

ـ كنت خشناً معك.

قال هذا مسلماً بالأمر، ثم أخذ يتساءل عما دعاه إلى هذا القول، لكنه لم يتساءل عما جعله يحتضنها لأن هذا التطوّر حدث وكأنه أمر لا مناص منه.

ـ ليس ذنبك إذا كان بريت نذلاً. لكنّني لا أريد أن أفكر فيه حالياً.

قالت هذا وهي ترتجف، مطلقة العنان لأحاسيسها فاندفعت تنشد الأمان في صدره الواسع، وتدس وجهها المبلل بالدموع في كتفه.

وأمسك بها يبعدها عنه، ثم أخذ يقرّب وجهها من وجهه.

كانت هذه هي اللحظة المناسبة ليطلب أجوبة عن تساؤلاته الكثيرة، واشتبكت عيناه الذهبيتان المصممتان بعينيها الزرقاوين الدامعتين لحظة طويلة وهو يذكّر نفسه بأنها كانت عشيقة صهرها، وأنها كاذبة بارعة. ومع ذلك أخذ يحدّق في هاتين العينين الزرقاوين الرائعتين. واكتسحته موجة من المشاعر المفاجئة.

ـ لماذا تنظر إليّ بهذا الشكل.

همست ليلي بذلك. ولقربه منها استطاعت أن ترى الضوء الذهبي في عينيه المحيرتين، وتملكها حسّ بهيج بالترقب.

ـ إنها نظرات إعجاب.

أمالها على ذراعه، ونزع بيده الأخرى مشبك شعرها وألقى به جانباً. كان يقوم بكل حركة ببطء مبالغ به، منتظراً منها أن تحتج أو تنسحب كما كانت تفعل دوماً كلما اقترب منها. أما تجاوبها عندما كانت بين ذراعيه بالأمس، فلا يزال بنظره غير حقيقي لأن ذلك لم يكن ما يتذكره منها.

تحت نظرات رؤوف المحرقة، شعرت بأنفاسها تحتبس في صدرها. وأجابت:

ـ أحقاً أنت معجب بي؟.

ـ كثيراً...

أجابها بصوت أجشّ، ونوع من التسلية المرة يخترقه، فلم يعد لديه شك الآن بأن نفورها السابق منه كان متعمّداً لكي تثير رغبته فيها. وتابع يقول:

ـ لا سيما وأن التوتر لا يبدو عليك كالعادة حين كنت أقترب منك.

احمرت وجنتاها وانسلخت نظراتها المضطربة عن نظراته بارتباك.

ـ لقد تغلّبت على ذلك.

ولكن متى تغلّبت على ذلك بهذا الشكل السحري؟ أبالأمس فقط، عندما رأت أن مستقبل «سفريات هاريس» أصبح بين يديه؟ وهاجمته أفكار سوداء خطيرة تخلّص منها مركّزاً على هدف واحد، وترك أصابعه تتخلل شعرها الرائع المنسدل حول كتفيها المتوتّرتين بخصلاته اللامعة.

ـ إنه طويل جداً ورائع.

عيناه المضيئتان سمرّتاها مكانها. لم تعد تستطيع أن تتنفس، وأخذ قلبها يخفق وكأنها ركضت شوطاً طويلاً، ما جعل الكلام صعباً عليها.

فقال بصوت أجشّ: «لكنني أحبه للغاية..».

ودنا منها ببطء أثار أحاسيسها. أحست بنشوة بالغة، وكان إحساسها بقربه منها غاية في الروعة.

قال وهو ينتصب واقفاً: «حان الوقت لنذهب من هنا».

وقبل أن تستيقظ من تأثير تلك الأحاسيس، كان قد انحنى وحملها بين ذراعيه وخرج بها من القاعة إلى الممر.

نظرت إليه باضطراب ووهن: «يمكنني أن أمشي...».

فقال باسماً: «لكنني أحب أن أحملك».

وبقيت ابتسامته المدمّرة الإشراق في وجهه. وقفز قلبها في صدرها لسحر تلك الابتسامة.

نظر إليها وقال فجأة: «سآخذك إلى غرفة الجلوس. فالمكان هناك أكثر حميمية».

شيء من الذعر منع ليلي من الاستجابة لهذه الدعوة. أليس هذا التطوّر في علاقتهما مبكراً عن اللزوم؟ ولكن، أتراها سترفض طلباً للرجل الوحيد الذي أحبّته؟ فكّرت في كبريائه وماضيهما معاً، فعلمت أنه لن يتودّد إليها مجدداً لو رفضته الآن. إنه يتوقع هذه المرة أن يتكلم مع امرأة راشدة وليس مع مراهقة ولن تسامح نفسها أبداً إذا فقدت رؤوف مرة أخرى. عليها أن تضع توتّر الأعصاب جانباً، وأن تكون صادقة مع نفسها ومع مشاعرها.

ـ ليلي...

اصطدمت ليلي بالعينين الذهبيتين فتسارعت خفقات قلبها. تشبثت بكتفيه وضمته إليها، أمّا هو فأحسّ بشعور غريب ورضى بالغ. مضت دقيقة على الأقل قبل أن تتمكن ليلي من التقاط أنفاسها.

وضعها على الكنبة المزخرفة، وقد جمّدها توتر مفاجيء.

تراجع رؤوف إلى الخلف لينظر إليها وقد انسدل شعرها الرائع حولها كغطاء من الذهب فجعلها تبدو كأميرة الجن في الحكايات. كان منظرها يخطف الأنفاس. وعندما خلع سترته استقرت عيناه عليها ثم ضاقتا بقوة وحزم مفاجئين. لن يدعها تفلت منه مجدّداً وترحل بعيداً.

وقال بإعجاب:

ـ لا أستطيع أن أبعد نظراتي عنك.

هي أيضاً لم تستطع أن تبعد نظراتها عنه. لكنها، من ناحية أخرى، لم تكن تصدّق تماماً أنها في منزله.. وحدهما. وشعرت بخجل من نفسها لكنه يحتل قلبها، وذكرياتها عنه لا تغادر مخيلتها. لقد مضى وقت طويل وهي تنكر الحقيقة على نفسها... هي لا تزال مغرمة به.

ـ هل تفعل هذا على الدوام؟.

جمد مكانه لهذا السؤال الذي لم يفهمه تماماً.

فتابعت كلامها بصوت مرتجف: «أعني هل تحضر إلى منزلك أي امرأة تعمل معها؟».

نظر إليها نظرة محيّرة، فالتهبت وجنتاها، وأحنت رأسها: «كنت أتساءل فقط».

ودون تردد، لفّ ذراعاه حولها وضمّها إليه:

ـ أنت لست أي امرأة. وهذا شيء مختلف.

ونظرت إليه بعينين متشوقتين وفم جاف...

قال فجأة: «نسيت أن أدعوك إلى الغداء».

ـ ربما ستفعل ذلك فيما بعد...

ـ أنت جذّابة للغاية....

تمتم بذلك وهو يتأمل جمالها البريء ويجول بنظراته على وجهها المنهك.

ـ أحقاً؟.

تمتمت ليلي بذلك متوترة.

ـ بشرتك ناعمة إلى حد لا يصدق.

قال هذا وهو يمرّر أصابعه على خصلات شعرها الحريري الناعم ثم على خدها.

شعرت بالحرارة تسري في جسدها من يديه اللتين كانتا تداعبان شعرها فارتجفت. لكن شوقها جعلها تميل نحوه وتقترب منه أكثر.

لم يعد يهمها أي شيء آخر. إنها الآن بالقرب من رؤوف وهذا يشعرها بالأمان.

نظر رؤوف إليها محبوس الأنفاس ولم يستطع أن يشيح نظره عنها.

ـ أنت رائعة.

همس بذلك، وهو يسجّل كل حركة من حركاتها وكل ملمح من ملامحها في ذاكرته.

كانت عيناها الزرقاوان تتألقان كنجمتين متلألئتين، وشفتاها مصبوغتين بلون أحمر رائع، وشعرها الأشقر منسدلاً حول كتفيها كستارة نُسجت من خيوط الشمس. فراح رؤوف يتخيل أن أصعب ما قد يواجهه لو

تزوج ليلي هو الافتراق عنها ولو لساعة لحضور اجتماع عمل.

أخذ قلبها يخفق بعنف إزاء تلك النظرات المتفحصة وفتحت شفتيها الجافتين:

ـ لقد افتقدتك كثيراً بعد أن رحلت.. فأنا لم أحب أحداً سواك.

فوجيء بهذا الادعاء الكاذب، فأخفى نظراته الساخرة وحاول ألاّ يجفل. من المؤكد أنه لن يصدّق أنها بريئة ولم تحب رجلاً سواه. لكنه لم يشأ أن يواجهها بشأن علاقتها ببريت غيلمان، ربما شعرت بأن عليها أن تحتفظ بهذا لنفسها. ولكن حتى بعد مرور عدّة سنوات؟.

ـ نحن هنا الآن معاً.. وهذا هو الأهم.

وعاد يعانقها بقوّة. صعقها هذا العناق فاستسلمت بين ذراعيه وهي ترتجف.

ـ لم أرغب يوماً في امرأة كما أرغب فيك الآن.

اعترف رؤوف لها بذلك بصوت ممزق. ساءته هذه الحقيقة بمرارة لكن ذلك الاعتراف أبهج ليلي فلمعت عيناها.

وهمست وهي تنظر إليه بثقة تامة: «إنه لشعور متبادل».

لكنه لم يكن دوماً كذلك كما كان رؤوف يعلم هذا جيداً. وبدت على شفتيه ابتسامة خطيرة:

ـ الآن بعد أن ذهب بريت؟

طرفت ليلي بعينيها، وابتعدت عنه بقدر ما أمكنها ذلك. لم تستطع أن تعثر على صلة لبريت بهذا الموضوع، ثم تساءلت فجأة بذعر إن كان رؤوف يشك طوال الوقت في أن علاقة مشبوهة تجمعها بصهرها السابق. لكنها لن تخبر رؤوف عن سلوك بريت المقزّز للنفس حين كانت مراهقة. صحيح أن بريت لم يلمسها قط، لكنه تركها تشعر بالقذارة وكانت مقتنعة بأن رؤوف سيشمئز وينفر.. أو أسوأ من ذلك، قد يتساءل عما إذا كانت هي قد أغوته بطريقة ما... فهي مقتنعة تماماً بأن رؤوف سيصدّق عنها أيّ شيء.

قالت بارتباك: «آسفة... لم أنتبه إلى ما قلت».

كانت شاحبة وعيناها الزرقاوان يغمرهما إنهاك وصراع فسّرهما رؤوف بأنهما نتيجة شعور بالذنب. ذنب أرسل في كيانه شعوراً ملتهباً بالغضب. إذا تمكّن من وضع يديه يوماً ما على بريت، سيحطم له وجهه.

كبت غضبه ثم مدّ يديه ليأخذ بيدها: «الأريكة فسيحة، لكن هذا لا يعني أنه عليك أن تبتعدي كثيراً عني».

- رؤوف...

نطقت باسمه عندما أحسّت بصراع داخلي وبقوتين تتنازعانها إحداهما الرغبة والأخرى قوة تأنيب الضمير.

أغمضت عينيها بشدة وأحاطته بذراعيها وقد ازدادت شوقاً. حاول رؤوف أن يبتعد، كأنه يختبر أحاسيسها نحوه. إلاّ أنه اطمأن إلى تجاوبها، فعاد يعانقها وقد شعر بأنها فعلاً لم تعانق رجلاً من قبل، إذ بدت عديمة الخبرة، بريئة ولكن... رائعة إلى حدّ لا يصدق. شعرت ليلي بأنها تحلّق عالياً وبأنها تعيش حلماً تودّ لو أنها لا تصحو منه أبداً.

أخذ يحدق في وجهها السعيد (البريء) شاعراً وكأن سكيناً غُرزت في أحشائه. كيف فكّر يوماً بأن ليلي كانت يوماً عشيقة بريت؟ من الواضح أنها بريئة جداً.

- أشعر بأنني سعيدة... سعيدة للغاية.

اعترفت ليلي أخيراً بذلك وقد شعرت في تلك اللحظة أن العالم بأسره كان منحصراً في رؤوف ولا أحد سواه. إنها بين ذراعيه. إنها تحبه. لكن رؤوف قال بصوت خافت وهو يصرّ على أسنانه:

- أنا بحاجة إلى الاستحمام.

راحت تنظر إليه دهشة وهو يسير بخطوات واسعة نحو باب الحمام. لماذا تركها فجأة؟.

ألم يحسّ وهو معها ما أحسّت هي به؟ أتراه لا يبادلها الحب؟

تملكها شعور داخلي بالفراغ والغثيان، فجلست تحتضن ركبتيها،

وقد أظلمت عيناها بالألم والشعور بالإهانة والمذلة. من الواضح أن رؤوف ندم على تقرّبه منها ولم يشأ أن يتقاربا أكثر.

وهذه الحقيقة بدت أكثر تحقيراً لها من أي شيء آخر. ولكن لماذا؟ أي خطأ اقترفته؟.

* * *

www.elromancia.com

٥ ـ انتقام واهتمام؟

استغرق رؤوف وقتاً طويلاً وهو يقف تحت الماء البارد.

ليلي ليست كما كان يظن! لقد أذهله هذا الاكتشاف للغاية وأثبت خطأه. سيكون عليه أن يكون صادقاً معها. وكان هذا أول قرار له.

ثم حاول أن يتذكر ما الذي جعله يظنّ أنها كانت على علاقة بزوج أختها. لا، إنه حتماً لن يلجأ إلى الصراحة التامة. ذلك أن الرعب سيتملكها وستشعر بالمهانة والإحراج. كيف يعترف لها بأنه كان يعتقد بوجود مثل هذه العلاقة اللاأخلاقية؟ وأنه قد تبلها بسبب هذا الاعتقاد؟. وأنه كان يظن بأنها لم تخن ثقته وحسب، وإنما ثقة أختها أيضاً؟

طوال الوقت، كانت ليلي صادقة، من دون كذب... ومن دون خداع. وعندما عرضت عليه أن يبقيا صديقين، كانت تعني ذلك حقاً. ولم يكن في ذلك أي إشارة إلى أنها تريد ماله.

عندئذٍ تأوه رؤوف بصوت مرتفع وهو يتخلل شعره المبلل بأصابعه.

عاد يستعرض الذكريات التي دمرته ويحللها ويعيدها إلى أصلها. ذكريات عن ليلي في ذلك الصيف قبل أن ينفصلا. في كل تلك الذكريات، كانت ليلي تبدو فتاة طيبة خلوق بشكل غير عادي، خصوصاً برقة قلبها، وابتعادها عن الأطماع المادية.

ثم إنها تحب الأطفال كثيراً، وتجود بعنايتها حتى على المزعجين منهم وكذلك كانت تهتم بكل إنسان شريد دون مأوى.

وقد بكت مرة حين حدّثها عن كلبه الذي مات عندما كان هو في الحادية عشرة. حتى أن القلق تملّكها عندما رأته ينفق نقوداً كثيرة عليها، وأصرّت على أن يذهبا في نزهات بحيث يمكنهما الأكل في الهواء الطلق، بدلاً من ارتياد المطاعم. أصبح ماء الدوش بالغ البرودة لكن رؤوف لم يحس به إذ كان مستغرقاً بذكرياته التي عادت به ثلاث سنوات إلى الوراء.

أحسّ بشيء من الارتباك والذعر لم يعهده من قبل، وكل ذلك بسبب تلك الأفكار المغلوطة عن ليلي. وارتجف. كلما زاد تفحصاً لتصرفاته، بدت له أسوأ. فكلما حدث أمر كان يظن بها الأسوأ ويعاملها على هذا الأساس، من دون أن يكون لديه أي دليل حسي.

لم تكن الصراحة عنده خياراً محتملاً. وليلي لم تعرف قط الطريقة التي كان يفكر فيها. والآن هو لا يريدها على الإطلاق أن تعلم أنه كان رجلاً قاسياً ساخراً، سلم نفسه إلى التآمر والشكوك بالمرأة التي أحبّته بصدق، كما هي حال بطل قصة شكسبير الذي قتل زوجته. إنه لا يريد لأحد أن يعرف ذلك على الإطلاق، وخصوصاً ليلي.

أمر واحد فقط ما زال يزعجه. ما الذي كانت تفعله في ذلك الفندق مع بريت غيلمان؟ ولماذا كذبت بشأن وجودها هناك؟ وأكثر من ذلك، لماذا لم تعد متوتّرة معه هو؟ وما هي المعجزة التي أحدثت هذا التغيير وجعلتها تتخطى خوفها منه.

وضع تلك التساؤلات جانباً. وقال لنفسه: ليلي أشبه بملاك، بل هي ملاك، وكفى تشككاً بحظك السعيد في العثور على امرأة أنت لا تستحقها.

عرفت ليلي بين ذراعي رؤوف شعوراً بالسعادة لم تحس به يوماً. غير أن تلك السعادة سرعان ما تلاشت، عندما ابتعد رؤوف متحججاً بحاجته إلى الاستحمام.

الحب الأحمق والآمال الأكثر حماقة قد ضلّلاها وليس عليها أن تنتظر طويلاً لكي تدفع ثمن غبائها. لماذا لا تواجه الأمر؟ كل ما كان رؤوف يريده منها هو علاقة عاطفية عابرة، وحين شعر أنه لن يحصل عليها خاب

أمله.

ألم تخيب هي دوماً أمله بطريقة أو بأخرى؟ وعادت بها الأفكار إلى أول مرة قابلت فيها رؤوف كازابيان.

الأزهار الرائعة التي أرسلها كمريون اعتذار عن الشجار الذي حصل، لم تكن سوى حجة ليأتي لاحقاً لزيارتها في مكان عملها.

كما أنه لم يضيّع وقتاً في توضيح نيّته. ألقى رأسه الوسيم ذا الشعر الأسود إلى الخلف، وتمتم بابتسامة جذابة: «أظن أن كلينا يعلم أنني هنا لأراك مرة أخرى».

ـ ولكن لديك صديقة...

ـ لا. أنا لا أخرج مع نساء يصرخن على نساء أخريات أمام الناس... سأنتظر إلى أن ينتهي دوام عملك.

لم تقابل في حياتها رجلاً واثقاً من نفسه إلى هذا الحد، فمن المحتمل جداً أن ترفض دعوته. وبالفعل كاد يندفع من بين شفتيها رفض آليّ، لكنّها لم تنطق به، ذلك أنها، عندما واجهت عينيه الذهبيتين الرائعتين، وفكّرت في أنه سيتركها ولن يعود أبداً، فضلت الصمت. وعندما كان عليها أن تخدم الزبون الجالس إلى جانب رؤوف، حاول الرجل التحرش بها، فأبعدته عنها.

وعندما سألها الرجل من تحسب نفسها، تدخل رؤوف: «إنها لي، فارفع يديك عنها..».

أعادها معه إلى شقتها لكي تغير ملابسها، وهناك تبعتها أنابيل إلى غرفتها الصغيرة وقالت لها بحقد:

ـ لابأس، أنت لست فتاة شاذة وقد اختطفته. لكن ذلك الرجل يتوقع منك أكثر من مجرد الاحتضان في نهاية السهرة، لذا لا تقولي إنك لا تعرفين!

كانت ليلي خائفة بما يكفي من دون تحذير أنابيل.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ إنه رجل عابث، المكتوب يُقرأ من عنوانه. استمتعي الليلة بهذه السهرة لأنك لن تريه مجدداً. أنت ستقولين لا، وهو لن يضيّع مزيداً من الوقت معك.. وعلى كل حال، لماذا يضيّع وقته؟ فالفتيات يتهافتن باستمرار على رجل مثله.

دعاها إلى العشاء في مطعم تركي رائع، وتحدثا لساعات. حسناً، كان هو الذي يتكلم أكثر الأحيان، وكانت هي تستمع. أخبرها أنه يعمل على تأسيس مجلة، وأنه ينوي البقاء في لندن طوال الصيف. في تلك الليلة، لم يحاول حتى الاقتراب منها لكنه طلب رؤيتها كل يوم خلال أوقات فراغها.

في الليلة التالية، لم يستطع إلاّ أن يضم كتفيها بذراعه فلم تمانع، لأنه قام بذلك في مكان عام وفي وضح النهار. ولم تشعر بأدنى خوف من أي نوع كان. كما أنها اكتشفت أن قربه منها أعجبها. وفي الليلة الثالثة، طلب منها أن يعودا إلى فندقه فيتحدثا هناك. وكأن منح الثقة لرجل لم تعرفه إلا منذ يومين، هو أمر طبيعي للغاية.

وقالت له: «أنا لا أفعل شيئاً كهذا».

ـ بلى، لكنك تتدللين وتمانعين فقط لكي تجعليني متلهفاً إليك، كعادة النساء دوماً، وبعد ذلك تقولين نعم.

فتململت: «أنا لم أخرج مع أحد من قبل».

ساد صمت طويل جداً، بينما عيناه المجفلتان تحدقان في عينيها: «أتقولين إنك ما زلت...؟».

فأسرعت تومئ برأسها وقد توهج وجهها احمراراً.

ـ عليّ أن أقول إن إغواء العذارى ليس من طبيعتي، ولكن...

لم يكن هذا هو الجواب المتفهم الذي كانت تتوقعه، فتمتمت تقول بارتباك بالغ:

ـ ما أريد قوله هو أنني حقاً أريد أن أحافظ على سمعتي حتى أتزوج.

ـ لكنني لا أبحث عن زوجة، وأشك في أنني سأتزوج في يوم من

الأيام. أنا من أسرة يتزوج أفرادها في سن مبكرة، ولكنني منذ سن الثامنة عشرة، أدافع عن نفسي ضد العرائس المرشحات لي في الأسرة. أنا أحب حريتي. لذا، إذا كنت تريدين الزواج، فإنك قد وقعت على الشخص غير المناسب.

تمنت لو أنه أخبرها بكل ذلك في موعدهما الأول. ذلك أنها الآن، بعد أن أحبته، أصبح من الصعب عليها أن تكفّ عن حبّه. لكنها، في نهاية السهرة، أخبرته بأنها لا تريد أن تراه مرة أخرى. وهي حتى الآن، ما زالت تتذكر الغضب الذي ارتسم على ملامحه الرائعة، والرعب الذي شعرت به إزاء سوء طباعه. لم يقل أو يفعل شيئاً يعبّر عن ذلك الغضب، لكنّه لم يتصل بها طوال يومين، وإذا به يظهر في البار غاضباً، لكنه حاول أن يخفي ذلك. وبمجرّد النظر إليه، أدركت أنه، حتى لو لم يكن لعلاقتهما أي مستقبل، ما زال هو قدرها. وفي الأسبوع التالي عثر لها على عمل آخر كمضيفة في صالون تجميل تملكه زوجة صديق له، وكانت هي بالغة الشكر له.

مرت أسابيع قليلة استمتعا فيها بوقت رائع، لكن الأمور ساءت عندما تدخّل خوفها من الرجال في الأمر، في ثلاث مناسبات متفرقة. حاولت تخطي ذلك الخوف ولكن محاولاتها ذهبت سدى. فذات مرة، كانا بمفردهما وحاول معانقتها، لكنها تجمّدت بين يديه كلوح من ثلج. وفي المرة الثانية، حاولت أن تحرّر مشاعرها المكبوتة، إلا أن الأمر لم ينجح، فأخذها إلى البيت بصمت كئيب. وفي المرة الثالثة اعترفت له بأنه يخيفها أحياناً، فبدت عليه صدمة جعلتها تشعر بالذنب.

ولكن المستغرب في الأمر، أنه بقي يتفهم وضعهما، وكان بالغ الرّقة والاهتمام بها، فازداد حبها له. ومع ذلك، حين توسلت إليها أختها هيلاري أن تحضره إلى البيت، أخذت تقدّم الأعذار. وإذا ببريت يذهب إلى شقتها ذات ليلة في نفس الوقت الذي كان يفترض برؤوف أن يأتي لاصطحابها:

ـ لقد حان وقت المصالحة ودفن الأحقاد.

قال لها بريت هذا بابتسامة مقزّزة بينما انكمشت هي خلف الباب.

وتابع يقول: «هيلاري تتحرق شوقاً لرؤية رؤوف كازابيان، وأنا أقسم أن يكون سلوكي على أفضل ما يمكن إذا أحضرته خلال عطلة نهاية الأسبوع».

ـ لماذا؟ لماذا ستقسم بذلك؟.

ـ هيلاري منزعجة لأنك لا تزورينا. وهذا يجعلني أشعر بالسوء.

من الغريب أن رؤوف كان حريصاً على التعرف إلى أسرتها، ومع أنها دهشت لاهتمامه بالاستثمار في «سفريات هاريس»، فقد كانت عطلة نهاية الأسبوع رائعة. بعد ذلك بأسبوع، قاما بزيارة ثانية إلى منزل الأسرة، لأن محاسب رؤوف جاء من تركيا لكي يراجع حسابات «سفريات هاريس»، والعقد الذي كان محامي رؤوف في لندن قد نصّه، قام بتوقيعه رؤوف وأبوها. ولكن تراكمت المصائب الواحدة تلو الأخرى، خلال تلك العطلة الأسبوعية.

كانت ليلي متوترة للغاية، لعلمها أن رؤوف سيعود نهائياً إلى وطنه. وعندما وصلا إلى البيت، كانت ابنة أختها غيمّا مريضة. وكان على ليلي أن تحلّ في اليوم التالي مكان موظفة مريضة في شركة السفريات. ثم أخذوا غيمّا إلى المستشفى لإجراء جراحة طارئة، فيما كانت هيلاري مذعورة لأنها لم تستطع الاتصال ببريت. أبعدت ليلي من ذهنها تلك الذكريات غير المستحبة، لتتذكر كيف ودّعت رؤوف في المطار ذلك المساء، من دون أن يقول لها كلمة واحدة عمّا إذا كان سيعود لرؤيتها أم أنه لن يراها مرة أخرى. وكانت المرة الأخيرة التي رأته فيها أو سمعت عن أخباره. اتصلت به مرّة، لتطمئن عن أحواله، فأجاب، لكن أعصابها المتوتّرة ربطت لسانها فلم تستطع أن تتكلم.

عندما عاد رؤوف، نظرت إليه بذعر وغاصت في الأريكة، كطفلة صغيرة.

- ليلي...

- ابتعد عني...

جلس رؤوف إلى جانبها ونظر في عينيها الزرقاوين المذعورتين: «كنت معك نذلاً عديم الإحساس، لكنني أهتمّ جداً لأمرك».

- برهن على ذلك إذن.. وابتعد من هنا!

قالت له هذا وهي تكاد تختنق، مفكّرة في تلك الكلمة غير الواضحة: «الاهتمام». كلمة تبدو جاهزة دوماً على شفتي رؤوف كلما كان بقربها. لكن تلك الكلمة لا تعد بشيء. وتذكّرت أنها عندما كانت تنتظر أن يرنّ هاتفها وأن يظهر رقم رؤوف على شاشته، تعلّمت الدرس الصعب، وهو أن مفهوم (الاهتمام) قد لا يعني شيئاً على الإطلاق.

فصرخ فيها بإحباط فوري: «لا أحتمل أن أراك مستاءة مني، فيما لا أستطيع أن أحتضنك».

عند ذلك رفعت ليلي رأسها قليلاً، فقد بدت لهجته مخلصة تماماً:

- أنا لا أستطيع أن أفهمك...

سألها مستجمعاً قواه عند هذا الخبر المطمئن: «ولماذا تريدين أن تفهميني؟ أنا رجل، ومن المفترض أن أكون مختلفاً؟».

فقالت بعجز: «أنت مختلف أكثر مما يلزم. لا أدري أين أنا بالنسبة إليك».

- في منزلي وبالقرب مني وسوف أشدّك إليّ إذا لم تأتي بإرادتك.

قال لها هذا بثبات، فتملكها استياء بالغ: «افعل ذلك.. وأعدك بأن أبرّحك ضرباً».

نظر إلى وجهها الغاضب ذاهلاً لهذا التهديد: «كنت أمزح فقط..».

لا. كانت تعلم أنه لم يكن كذلك. فهي تعرفه جيداً من هذه الناحية.

قرّبها منه من دون أي تردد، فلم تقاومه أو حتى تعارضه. لم تفكّر بما كانت تفعله. وبدا لها وكأن الزمن يسير سيراً عكسياً، أو أن البيت مسكون بالأشباح. ذلك أن رؤوف ما بين خروجه من غرفة الجلوس وعودته إليها،

بدا وكأنه عاد ذلك الرجل الذي عرفته في لندن. كان أكثر استرخاء وأقل خشونة، وقد غادره كل أثر لتلك البرودة أو الاحتقار أو التحفظ. كما عاد إلى عينيه الجميلتين ذلك الدفء. ما الذي تغيّر؟ حاولت ليلي جاهدة أن تبعد عينيها عنه، لكنها لم تفلح. وأقرّت بأن ذلك التغيير كان سيئاً، لأن رؤوف كالعادة، بدا رائعاً بجينزه الأسود، وقميصه الرماديّ الذي جعله يبدو أقرب إلى الإلفة منه عندما يرتدي البذلة. بدا جذّاباً بشعره الأسود الذي ما زال رطباً، وذلك الوجه الصلب الملامح، وتينك العينين القاتمتين العميقتين اللتين تسمّرنا عليها.

قال رؤوف برقة: «دهشت حقاً للطريقة التي عانقتني بها، وتبيّن لي أنك حقاً لم تعانقي رجلاً من قبل. أنا أعلم أنك قلت هذا، لكنني لم أصدقك».

عند ذلك الاعتراف المفاجيء، طرفت ليلي بعينيها ببطء: «أتعني... أنك لم تصدقني مطلقاً؟».

- صدقتك. لكنني كنت أتساءل أحياناً عما إذا كانت تلك طريقة بارعة لتدفعيني إلى الزواج.

شحب وجه ليلي وأخذت تحدّق فيه بتأنيب صريح، إلى أن جعلها الاستياء تشيح بوجهها عنه:

- أخبرتني عن موقفك من الزواج. وكنت أعلم أن ما كان بيننا لن يؤدي إلى شيء.

من الغريب أن ذلك الاستنتاج منها أزعجه لدرجة بالغة. وتابعت هي بعجز، مستغربة سبب توتر فكّه العنيد، وكأنها قالت شيئاً جرحه:

- أنا أعيش في إنكلترا وأنت تعيش هنا. وكل ما كان معروضاً هو علاقة عابرة.

فقال ببطء وعيناه الذهبيتان تلمعان تحدياً: «أنا لا أتخذ علاقات عابرة».

توتر فمها الممتلىء وغطت أهدابها نظراتها، بينما أظلم وجهها

الجميل: «وماذا تسمي علاقتك بي؟».

أخذت نفساً مرتجفاً وتوتر حلقها، لأن الحديث عن هذا الموضوع بالذات كان صعباً عليها.

ـ لم أكن أعرف ما كنت أتوقعه، لكنه لم يكن بالتأكيد الطريقة التي تصرفت بها بعد ذلك...

راح يلفّ شعرها حول أصابعه وجذبها إليه بعاطفة محمومة تركت تأثيرها البالغ على كيانها. فكاد قلبها ينفجر، وأخذ نبضها يتسارع. رفعت بصرها إلى رؤوف بعينين ذاهلتين.

وهمست ورأسها يدور: «رؤوف...؟».

لفّ ذراعيه حولها وعانقها عناقاً طويلاً. ولم يشعرا بالوقت إلى أن رنّ جرس هاتف رؤوف. فأجاب على المكالمة الهاتفية، وإذ وجد أن وقت العشاء قد حان تقريباً، قال إنه سيطلب الطعام.

بعد أن وقف واتجه نحو الباب، عاد ليلتفت نحوها وتركزت نظراته عليها مرة أخرى، ثم رجع ليجلس إلى جانبها ملقياً بذراعيه حول عنقها مجدداً، منزعجاً لاضطراره إلى سلخ نفسه عنها.

وقال بصوت أبح: «لن أتأخر».

كانت الشمس تنحو للمغيب حين نزلت ليلي إلى الطابق السفلي لتغير ملابسها. شعرت بنفسها امرأة ضائعة. لقد جعلها رؤوف تشعر بأنها محبوبة للغاية ولكن أليس هذا غريباً؟ لم يقل لها إنه يحبها.

أقنعت نفسها بأنها ليست من السذاجة بحيث تبدأ في التفكير بأن مشاعر رؤوف الحميمة تعني بالضرورة أنه يحبها.

غير أنها كانت مقتنعة تماماً بأنها تحب رجلاً لن يعتبرها أكثر من جزء صغير من حياته.. رجلاً لن يقول لها أبداً إنه يحبها.. رجلاً حذراً يخشى دائماً أن يعد بشيء لا يستطيع تنفيذه.

وصف لها رؤوف ذات مرة تقاليد أسرة كازابيان. وتنهدت لما فعله القدر الساخر بأعزّ أمل لدى ذلك الثلاثيّ المتسلّط، أمه وجدّته وأم جدته،

ألا وهو تزويجه. ذلك أن رؤوف تعلّم في مدرسة انكليزية خاصّة فنشأ بين ثقافتين مختلفتين.

ولكن عندما أصبح في الثامنة عشرة من عمره أخذت أسرته تدعو بنات الأسر الصديقة والمعارف، وأخبرته أنه ليس مضطراً إلى الزواج قبل مرور عدة سنوات، ولكن لا ضرر من أن يختار فتاة ويستقر على خطبتها لمدة طويلة. وهذا من باب الحماية له دون شك. فقد كن يدركن أنه، بوسامته وثرائه البالغين، سيكون هدفاً للنساء أينما ذهب. كنّ متلهفات إلى تزويجه حتى قبل أن يذهب إلى الجامعة. وطبعاً، إزاء ما يتصف به رؤوف من ميزات وطبع عنيد كان لكل ذلك الضغط مفعول معاكس. وأصبحت العزوبية مبدأ لا يحيد عنه.

عندما دخلت ليلي غرفة النوم التي خصصها لها رؤوف، رأت أن حقيبة ملابسها قد أحضرت إلى الغرفة. كانت تلفّ شعرها إلى الخلف عندما تذكّرت ما يفضّله رؤوف، فابتسمت وأسدلته على كتفيها. وعندما ارتدت تنورة قطنية خضراء وقميصاً أبيض قصير الكمّين، فكرت كم ازدادت قوّتها منذ كانت في السادسة عشرة من عمرها، عندما كانت من السذاجة بحيث اعتقدت أن شعرها الأشقر الطويل هو الذي لفت انتباه بريت إليها، فخرجت في أحد الأيام وقصته قصيراً جداً. وصدم هذا هيلاري. لكن بريت ضحك فقط، واستمر في استهدافها. أمّا الآن فقد أبقته طويلاً تحدياً لتلك المراهقة الجبانة التي كانتها ذات مرة. لكنها ستتركه الآن منسدلاً لأجل رؤوف فقط.

كان رؤوف لا يزال في الغرفة الرئيسية في القسم القديم من المنزل يتحدث عبر الهاتف. ما أن دخلت ليلي الغرفة، حتى أشرق وجهه بابتسامة ترحيب جعلتها تشعر بالدوار. أحاطها بذراعه وأنهى المكالمة، ثم قادها إلى الخارج حيث كانت سقيفة جميلة مبنية من الحجر مضاءة بفوانيس قديمة، تطلّ على حديقة مزدانة بالأشجار المتنوّعة. وكان الخدم قد أحضروا عصيراً ومقبلات متنوّعة، وضعوها على المائدة، إلى جانب أنواع

عديدة من الأطعمة.

ـ هذه فاصولياء بيضاء... وهذه فطائر بالجبن.. وهذه... وهذه.

أخذ رؤوف يعرّفها على الأصناف الغريبة الموضوعة على المائدة، فراحت تتذوق قليلاً من كل صنف أمامها، فيما أخذ هو ينظر إلى استمتاعها بالطعام التركي بزهو واضح.

كانت وجبة خيالية. حتى أنّ رؤوف نفسه ذُهل بكثرة الأصناف التي أحضرت.

ولم تستطع إلا أن تسأله: «هل تأكلون بهذا الشكل كل ليلة؟».

فقال ضاحكاً: «في المناسبات فقط. وهذه الوليمة لا يمكن أن تكون إلا على شرف ضيفتي. حيث أن سونغول بعيدة، ومن النادر أن أستضيف أحداً هنا. ولكن تكريم الضيف من عادات الشعب التركي وتقاليده».

سألها عن مدرسة الحضانة التي تعمل فيها، وأخبرته هي عن الأطفال الذين تعلّمهم. وبعد الطعام، بدأت تشعر بالذنب، لأن عدة ساعات مرّت من دون أن تضغط على رؤوف للبدء بمعالجة القضية التي أتت من أجلها، والتي يجب أن تعالج في أسرع وقت ممكن. كلما أسرع رؤوف في الحصول على الأدلة التي يحتاجها لإثبات ذنب بريت، كلما تمكّنت هي من الإسراع في إخبار هيلاري عن الكارثة المالية التي توشك أن تُغرق «سفريات هاريس».

قالت له بشيء من الارتباك: «ربما يمكننا أن نلقي نظرة على البيانات المصرفية الخاصة بحساب «سفريات هاريس».

ارتسمت ابتسامة ساخرة جافة على فمه:

ـ لست بحاجة إلى عونك في هذا الأمر.

فسألته بدهشة: «ولكن ألم تحضرني إلى هنا لهذا السبب؟ للمساعدة؟».

ـ كان ذلك عذراً. فالتحريات جارية في المكتب الرئيسي للمصرف التركي في لندن. لديّ نفوذ هناك ويمكن أن أحصل منهم على كل

المعلومات التي أريدها.

هزّها هذا الشرح الهادىء، ذلك أنها لم تتصور قط أن دعوته هذه إلى «سونغول» قد لا تكون للسبب الذي أطلعها عليه:

ـ ألا تحتاجني على الإطلاق؟.

ـ لقد احتجتك لتكوني بقربي، وما زلت بحاجة إليك.

نظرة الدعابة الوقحة التي رمقها بها بعثت الاحمرار إلى وجهها وتابع يقول:

ـ ولكن، كما سبق وقلت لك، لا أريدك أن تفسدي عليّ تحرياتي.

ـ أنت ماهر جداً في إخفاء دوافعك الحقيقية.

ـ لقد تغير الوضع عما كان عليه في لقائنا الأول في فندق «بحر إيجه». لم أثق بك حينذاك. لكنني ما زلت أريد البراهين التي تدين بريت فيلمان.

تنهّدت ليلي: «وأنا أيضاً أودّ من كل قلبي أن أراه يتلقى عقابه، ولكن... ذلك سيؤذي أسرتي كثيراً».

ـ مع الأسف، لا مجال للمفاوضات بالنسبة إلى الإجراءات القانونية. لكنني لا أرى سبباً يجعل أسرتك تعاني هي أيضاً من ذلك.

ـ لكنها ستعاني ولا يمكننا فعل شيء حيال الأمر.

بدت التسلية في عيني رؤوف: «بل يمكننا فعل شيء.. وأنا لن أسمح بأن تتدمّر أسرتك. سأموّل «سفريات هاريس».

جمدت ليلي مذهولة إزاء هذا السخاء غير العادي. كما وجدت نفسها تتساءل عما إذا كان يتوقع مقابلاً لقاء هذا العرض السخي.

شعرت بالمهانة بحيث أصبح من المستحيل عليها مواجهة عينيه: «لا أبي ولا هيلاري يقبلان هذا. أنت خسرت مالاً وهما خسرا مالاً أيضاً، لكن «سفريات هاريس» هي ملكنا ومسؤوليتنا، وكان بريت زوج هيلاري».

ـ سأعالج الأمر، فلا تقلقي. سأهتم بكل شيء، ثقي بي.

قال هذا وهو يداعب يدها برقة. لكنها سحبتها بسرعة، وقد شعرت بالانزعاج لعرضه المساندة بالمال مرة أخرى. ثم وقفت: «إذا أنا وعدتك بألاّ أتصل بأحد، هل تعيدني إلى فندقي؟».

هبّ رؤوف محتجاً: «ولكن لماذا تريدين أن تذهبي؟».

ـ لأنني أشعر بأن وجودنا معاً اليوم... وهذا الوضع الفظيع مع بريت، أصبحا متشابكين.

رفع ذقنها وأخذ يتفحص وجهها: «أنت لا تريدين اتخاذ الإجراءات القانونية بحق بريت».

قال هذا يدينها بلهجة كالثلج جعلتها ترتجف:

ـ بل أريد، ولكنك أنت لا تريد أن تفهم...

ـ اشرحي لي إذاً.

أوضحت له بقدر ما أمكنها من الاختصار، كم عانت أسرتها مؤخراً. ابتداءً بمرض الطفلة جوي الذي أنهك هيلاري، مروراً بخسارة أبيها لمنزله في ترتيبات الطلاق، وصولاً إلى ما ترتب على كل ذلك من اكتئاب ألمّ بوالدها. وازداد عبوس رؤوف وهو يستمع إلى تلك المصائب، والتي كان السبب المباشر أو غير المباشر فيها بريت غيلمان ووحشيته وعدم اهتمامه بأولاده.

وعادت تكرر بصوت منخفض: «ولكن يستحيل أن يقبل أبي أو هيلاري مالاً منك. وأنا لا أريدك أن تعرض ذلك فقط لأنني على علاقة بك. ألا تستطيع أن ترى بماذا يجعلني هذا أشعر؟».

ـ لا. ما تريه أنت ليس هو ما أراه أنا. أنت تخصّينني وساهتم بأمرك، ولا عار يشينك في هذا. أي نوع من الرجال أكون إذا أنا لم أساندك في أزمة كهذه؟ سأجد وسيلة تجعلهما يقبلان مساعدتي. سمّها أنانية إذا شئت. كيف يسعني أن أقف مكتوف اليدين بينما أنت قلقة على أسرتك؟

العاطفة الجيّاشة التي بدت في كلام رؤوف وهو يدافع عن رأيه مسّت ليلي في أعماقها.

ـ لن تعودي إلى فندقك.

فتأوهت: «ولكن عليّ أن أذهب...».

ـ اللوم يقع عليّ أنا أيضاً إلى درجة ما، للحرية التي استطاع بريت بها أن يسرق منا جميعاً.

فقطّبت جبينها: «كيف؟».

ـ محاسبي الأخير كان صديقاً للأسرة. وكان عليّ أن أدعه يتقاعد قبل وقت طويل، فصحته كانت سيئة ووظيفته متعبة، لكنه بقي متشبثاً بها. كان عليه أن يتحقق من وصول الدفعة الأولى من شركة «سفريات هاريس» لكنه لم يفعل.

فقالت وهو يدفعها عائداً بها إلى داخل المنزل: «يا لسوء الحظ».

ـ ذلك السهو غير المقصود لا بد شجّع بريت على الاعتقاد أن بإمكانه أن يفلت بمزيد من المال.

كبحت ليلي تثاؤبها، فقد كانت من التعب بحيث شعرت وكأنها تسير في حلم. كل الأحداث المقلقة التي مرّت أثناء اليومين الماضيين تكدّست الآن عليها مرة واحدة.

ـ أنت مرهقة كلّياً.

وبضحكة آسفة، حمل رؤوف الجسد النحيل بين ذراعيه، وعاد بها إلى غرفتها حيث مدّدها على السرير.

دق جرس الهاتف الداخلي فرفع السماعة، وقيل له إن ضابطاً كبيراً في شعبة الشرطة المسؤولة عن تنفيذ القانون في المنطقة الريفية، قد جاء إلى «سونغول» يطلب مقابلته. هذا الخبر استولى بسرعة على أفكار رؤوف.

***

٦ ـ حبٌّ وشكٌّ

عرّف الرجل عن نفسه باسم طالب حجّار، وحيّا رؤوف معتذراً لتطفله.

كان طالب ضابط الشرطة الأعلى الذي أعدّ الملفّ حول «اتفاقية بريت غيلمان» مع البنّائين للعمل في المنزلين. ومنه علم رؤوف أن أولئك البنّائين، بعد أن تلقّوا مستحقاتهم من وكيل رؤوف، يريدون الآن أن يسقطوا الدعوى التي كانوا يرفعونها.

ـ فهمت أنّك علمت لتوّك بهذا العمل السيء، فتقدّمت على الفور لتعوّض لأولئك الذين خدعهم الرجل الإنكليزي. عملك هذا وإقرارك باهتمامك بالشركة التي وظفّته يُظهر أنّك تصرفت بغاية النبل. إنّني أشك في أنّنا كنا ستكتشف الصّلة من دون اعترافك الواضح.

اعترف الضابط بذلك بصدق: «وعلى كلّ حال، أعتقد أيضاً أن من الخطأ أن نسمح لهذا الأجنبي المخادع أن يستفيد من تحمّلك المسؤولية ويهرب من العقاب الذي يستحقّه».

فقال رؤوف موافقاً برزانة: «ولا أنا أيضاً أردت أن تكون هذه هي النهاية».

فنظر الضابط إليه باستحسان: «إذن، لا بد من أن أسألك أن تقنع من وقعوا ضحية جرمه هذا أن يُبقوا الدعوى مفتوحة. إنهم فقط يريدون إسقاطها احتراماً لاسم كازابيان. ولكن في مثل هذه الظروف، رجل أعمال

من مستواك وسمعتك، ليس لديه شيء يخافه أو يحاول إخفاءه».

المحزن في الأمر أن رؤوف لا يشعر بذلك، فليلي في منزله الآن، وهي رسمياً مديرة «سفريات هاريس».

كان على وشك أن يخفي وجودها في منزله، لكنّه عرض على الرجل أن يتناول الشاي. جلس رؤوف يخبر الشرطي ببقية القصّة. بعد أن أوضح أن ليلي في تركيا، تابع حديثه، مؤكّداً أنها تجهل تماماً ما كان يقوم به صهرها السابق من أعمال مخزية. كما وصف له ما تعانيه أسرتها نتيجة أعمال غيلمان ذاك.

ـ أسرتها ستواجه الإفلاس جرّاء هذا الأمر. وكانت ساعة شؤم يوم تزوجت شقيقتها من هذا الرجل البائس...

فتابع طالب حجّار وهو يهزّ رأسه عابساً: «حتى أنه سلبهم بيتهم. لقد أخطأ الأب في وضع كلّ هذه الثقة في صهره. ومع ذلك، من منّا لا يفعل ذلك مع فرد من أفراد الأسرة؟».

ـ إذا شئت أن تقابل ليلي، سأطلب منك أن تنتظر حتى الغد، فقد دخلت غرفتها لتنام.

ـ لا بد أن الشابة متكدّرة جداً لما اكتشفته منذ وصولها. وأنا حالياً، لا أرى ضرورة لإزعاجها بمقابلة رسميّة. وعلى كلّ حال، إذا تغيّر الوضع، أعلم أين أجدها.

عندما خرج الضابط، أسرع رؤوف إلى ليلي، فوجدها مستغرقة في النوم. بدا ووجهها الجميل هادئاً صافياً، ولو أنه لم يلاحظ تلك الظلال الخفيفة تحت عينيها، لربما أيقظها من النوم. لقد غامر بشرفه ووقف بجانبها شاهداً على حسن خلقها محاولاً حماية سمعتها التي لطخّها صهرها الفاسد. لقد فعل ذلك بسرور. ولكن هذا يكفي! جاء دورها الآن لكي توضح ما كانت تفعله في ذلك الفندق مع غيلمان منذ ثلاث سنوات. وخصوصاً السبب الذي جعلها تكذب في هذا الأمر. عليه أن يبدّد آخر شكوكه.

قرابة الفجر، وبعد نوم طويل مريح، فتحت ليلي عينيها، ثم ركّزت نظراتها على الضوء المتسرّب إلى الغرفة. كان رؤوف متمدّداً على الأريكة التي بجانب النافذة. ماذا يفعل في غرفتها بحق الله؟

حوّل انتباهه إليها عندما جلست مجفلة، ثم همست على الفور وهي ترى توتّره الشارد: «ماذا جرى؟».

ـ لم أستطع أن أنام. هناك شيء يشغل فكري.. ولطالما تمنّيت أن أسألك عنه...

وعندما قفز عن الأريكة وسار ليجلس عند أسفل سريرها كأنه أسد رابض مستعد للقفز على فريسته، وعيناه الذهبيتان مركّزتان على عينيها، أخذت نفساً متوتّراً قلقاً:

ـ لم أستيقظ تماماً بعد، ولكن تابع كلامك.

ـ في آخر مرّة مكثت فيها في بيتكم في إنكلترا... رأيتك تغادرين فندقاً مع صهرك.

شحب وجه ليلي، وتصلّب جسدها، وبدا عليها الارتباك لدى سماعها قوله هذا. وأعادتها ذاكرتها إلى ذلك الوقت العصيب.

ـ ولكن كيف استطعت أن تراني؟.

ـ كان محاسبي ينزل في الفندق نفسه، وكنت قد أنزلته من سيارتي للتوّ. كنت في موقف السيارات عندما رأيتك تدخلين، فانتظرت خروجك مرّة أخرى...

ـ ولكن إذا كنت قد رأيتني، لماذا لم تذكر ذلك؟

وأخذت تتفحصه وارتباكها وانزعاجها يزدادان:

ـ ثم لماذا لم تقترب مني؟

فأكمل كلامه متجاهلاً مقاطعتها له: «ومع ذلك ادعيت فيما بعد أنك لم تغادري وكالة السفريات ذلك الصباح على الإطلاق».

الصمت الهائل الذي تلا ذلك، هوى على أعصاب ليلي كالسكين. ولكن عندما فهمت كيف أوقعها رؤوف في الفخ، التهبت عيناها غضباً:

ـ جلست تراقبني متعمّداً ألاّ تجعلني أراك، ثم شجّعتني على الظنّ بأن لا ضرر من أن أنطق بكذبة بيضاء. وطوال الوقت.. طوال الوقت كان ذلك فخّاً!.

ـ أنت كذبت عليّ... ولو أنك أخبرتني بالحقيقة لما وقعت في الفخّ.

أجابها رؤوف بذلك وقد ثار غضبه لجرأتها على انتقاد سلوكه بينما هي المخطئة.

ألقت ليلي الملاءة عنها ونهضت من السرير: «هل تحاول أن تخبرني بأنك طوال حياتك لم تنطق مرّة بكذبة تتجنب بها إحراجاً؟».

فتصلّبت نظراته: «أنت تتجنّبين الموضوع...».

ـ بالنسبة إليّ، الموضوع الحقيقي هنا هو نقص تهذيبك ونيّتك في نصب فخّ لي لكي أقع فيه بهذا الشكل! أين ثقتك بي؟ أين الصّدق؟.

ـ أنت برهنت على أنك لا تستحقين ثقتي.

قال هذا ببطء واحتقار لسعها كجلد السوط.

عندما أخذت ليلي نفساً مرتجفاً، استقرت عيناه المتألّقتان على قميص نومها المغري. والتهب وجهها إزاء نظراته المتفحصة تلك، وطوت ذراعيها فوق صدرها في حركة دفاعية:

ـ هل برهنت حقّاً على ذلك؟.

فقال ساخراً: «هيّا... تكلّمي. أعطيني ولو سبباً واحداً دفعك لتقولي لي تلك الكذبة البيضاء الصغيرة البريئة!».

ضغطت شفتيها بشدّة. في ذلك اليوم منذ ثلاث سنوات، قامت بعملية تغطية وحماية للمظاهر. ذلك أن أسرتها التي يفترض أنها أسرة سعيدة، كانت، من وجهة نظرها على الأقل، بعيدة كل البعد عن ذلك.

قالت معترفة بمرارة عميقة، جعلت نظرات رؤوف إلى وجهها الغاضب المتمرّد أشد انتباهاً:

ـ كان بريت على علاقة بامرأة أخرى.. في الواقع، لم تكن تلك المرّة

الوحيدة. ولسوء الحظ، كانت هيلاري ذلك النهار تبحث عنه بقلق بالغ لأن طفلتهما غيمًا كانت قد نُقلت على جناح السرعة إلى المستشفى. وهو لم يكن يجيب على هاتفه الخليوي. ولكن، أنا كان لدي فكرة عن مكان وجوده، ذلك أن سكان المدينة يعلمون أنه يأخذ صديقاته دوماً إلى الفندق نفسه!.

- أتقولين إنك كنت والآخرون، تعلمون أنه «زير نساء» بينما أختك لم تكن تعلم، وأنك كنت تريدين إخفاء الأمر عنها؟.

- لِمَ لا؟

ورفعت ذقنها، عالمة بأن رؤوف حريص على المبادىء ولن يقبل عذراً لإخفائها الحقيقة. لكنّها كانت في أشدّ الرعب من نتائج الوشاية، ومن ردّة فعل رؤوف تجاه تهديد بريت الذي أرغمها على أن تلوذ بالصمت.

- كنت تحمينه هو أيضاً.

نظرت إليه بتغضب بالغ لجرأته على مهاجمتها من هذه الزاوية. جواب أبيها ذاك لها بأن ما يدور بين هيلاري وزوجها ليس من شأنهما، كان أوّل ما دفعها إلى التزام السريّة والتكتّم.

أجابت: «طبعاً لا. لا دخل لبريت بذلك.. كانت غيمًا تبكي وتطلب رؤية أبيها، وهذا كلّ ما كان يهمني ذلك اليوم».

- أمضيت وقتاً طويلاً في ذلك الفندق قبل أن تخرجي منه مع بريت.

قال يذكّرها بذلك ساخراً.

- لأن موظفة الاستقبال هي التي أخذت تتصل به في غرفته فلم تحصل على جواب.

أجابته بارتباك غاضب وهي تضيف: «فتشت عنه في البار وفي المطعم لكنني لم أعثر عليه. لم أشأ أن أصعد إلى غرفته بنفسي، فأمضيت دهراً أتسكع قربها. لكنّني، أخيراً، اضطررت إلى التسلل والصعود إلى غرفته».

وجد رؤوف ما قالته غير عادي. ومع ذلك روت قصتها وكأن ما فعلته

كان خيارها الوحيد. كان بإمكانه أن يصدّق في ما لو اختارت أن تبقى صامتة في أول مرّة واجهت خيانة صهرها الزوجية. أمّا أن تطلب منه أن يصدّق أنها تغمض عينيها عن أكثر من علاقة، ثم تحطّ من قدرها إلى مستوى ملاحقة غيلمان إلى المكان الذي يزاول فيه حقاراته، فهذا يضخّم من مقدار سذاجته إلى حد كبير. ومع ذلك، سجّل لديه أن ليلي لا ترى شيئاً غريباً في ما اعترفت به، ولا ترى ما يستحقّ التساؤل بالنسبة إلى تصرفها. مع أنها بتحذيرها بريت مسبقاً، قد ساهمت في حماية وضعه في أسرتها وانقاذه من النتائج التي يستحقّها تماماً.

قال يدينها باحتقار: «لماذا لا تخبريني بالحقيقة كلّها؟ وأنك كنت مغرمة ببريت غيلمان؟».

إزاء ذلك الافتراء الذي لا أساس له، حدّقت ليلي إلى رؤوف برعب، ومضت ثانية أو اثنتان قبل أن تجد صوتها لتقول:

- كيف يمكنك أن تتهمني بشيء مقزز مثل هذا؟.

- نظراً لما أخبرتني به لتوّك، هذا هو التفسير الوحيد!

أجابها بذلك بقناعة جمّدتها، بينما كانت عيناه باردتين داكنتين كبحيرة شتوية.

رفعت ليلي يداً مرتجفة إلى جبينها، ثم أخذت نفساً عميقاً ممزّقاً.

- كنت مغرمة ببريت!.

وارتجفت غضباً. من حسن حظّها أنها لم تخبر رؤوف عن المعاملة المثيرة للاشمئزاز، التي كان عليها أن تتحملها قبل أن تترك البيت وتذهب إلى الكلية! فلا شك أن رؤوف سيكون سعيداً للغاية في تفسيرها على أنها نتيجة إغواء من ناحيتها هي، وينسب اتهامه إلى أنه حقيقة ذات أساس.

إلى جانب ذلك، كانت ليلي لا تزال تعاني من صدمة ما كشف لها رؤوف عنه بالنسبة إلى دوره في تلك الأحداث منذ ثلاث سنوات. لقد رآها في ذلك الفندق، وعرف أنها كذبت عليه. وبعد أن ودّعته في المطار لدى عودته نهائياً إلى وطنه في ذلك اليوم، لم تسمع منه خبراً بعد ذلك. هل من

الممكن أن يكون رؤوف قد نبذها بسبب تلك الكذبة؟ عند هذه الفكرة، تملكتها عاصفة من المشاعر... غضب... ندم عنيف... إحباط لا يصدّق... هل يُعقل أن رؤوف لم يستطع أن يفهم أنه لم يكن لديها خيار آخر؟.

جلست ليلي، بعد أن شعرت بضعف ساقيها: «أنا بحاجة إلى أن أتحدث معك عما قلته لي... وأشرح لك...».

فردّ عليها بحدّة: «تحدثي!».

- كذبت عليك مرّة لكنني أريدك أن تفهم الوضع الذي كان حينذاك.

أصرّت على التكلم على الرغم من توتّرها:

- عندما رأيت بريت لأوّل مرّة مع امرأة أخرى، كنت في الخامسة عشرة من عمري فقط. أخبرت أبي بذلك، لكنه أوضح لي تماماً أنه لا يريد أن يعلم المزيد، وكان غاضباً جداً مني...

أجفل رؤوف لقولها هذا، فتقدم نحوها وجلس بجانبها:

- غاضباً منك؟ أبوك غضب منك؟ ولكن كيف يمكن أن يغضب منك؟.

فقالت بصعوبة: «فكّر كيف كانت الأمور في أسرتنا حينذاك! كان أبي يحبّ بريت ويثق به. وكان قد سبق وتنازل عن بيتنا لبريت وهيلاري مناصفة، كما أنه سلّمه مزيداً من المسؤولية في «سفريات هاربس»...».

- كان والدك يخاف إذن من وضع إصبعه على الجرح.

لقد أدرك رؤوف بسرعة، السبب الذي جعل الرجل العجوز يغضّ الطرف عن ذاك الوضع المشين.

فقالت له وفي حلقها غصّة وقد هدّدتها مشاعرها بالتغلب عليها:

- كان أبي يعتقد أن حياتهما الزوجية أمر خاص بهما. وربما كان على صواب إلى درجة ما، لأن هيلاري كانت سعيدة مع بريت. فقد كانت تعبده... وكانت تظنّه مثالياً، لكنه لم يكن مخلصاً لها يوماً.

غضب رؤوف من نفسه لأنه لم يقدّر تعقيدات الوضع، ولأن ليلي ربما

تعرّضت في حداثتها إلى تصرّفات بريت اللاّأخلاقية، وهي الصغيرة الضعيفة. فاقترب منها وطوّق خصرها بشدّة وكأنه يحميها.

لقد تورّطت ليلي في سرّ عائلي لا أخلاقي، وعلّموها أن تسكت. إلقاء أبيها لمثل هذا العبء الثقيل على كتفيها أغضب رؤوف، ولكن استمرارها في الخضوع لهذا الخطر المفروض عليها حتى في سن الواحدة والعشرين، ولجوءها إلى الكذب تستّراً على بريت، بقي يزعجه.

- كنّا جميعاً نعيش في المنزل نفسه، وكنت أشعر بالذنب لما أعرفه ولا تعرفه هيلاري. كان الأمر فظيعاً... كرهت بريت للغاية، وعندما دخلت الكلية كنت نادراً ما أذهب إلى البيت لأني لم أكن أستطيع أن أحتمل أن أكون قريبة منه في أي مكان!.

فجأة، أخذت ليلي تشهق بالبكاء على صدر رؤوف، وجسدها النحيل يهتز بقوّة لاضطراب مشاعرها.

كان على وشك أن يسألها لماذا إذاً رأى بريت غيلمان يغادر مبنى شققها في لندن، قبل أن يجتمع بأسرتها وقبل أن يدرك من يكون ذلك الرجل حينذاك. كان ما يزال هناك بعض التناقضات البسيطة التي تحتاج إلى توضيح. لكنه لا يستطيع أن يشك في الألم الحقيقي الذي أحدثه اتهامه في نفسها، وسيكون من القسوة أن يدقّق في الأمور أكثر من ذلك.

وهتفت وهي تهتزّ: «آسفة... أنا آسفة لأنني كذبت عليك...».

أحاط رؤوف وجهها الذاهل المضطرب بيدين حازمتين ولكن رقيقتين:

- الأمر غير مهم الآن... وهو لا يستحق دموعك. ذلك النذل غيلمان لا يستحقّ دمعة منك!.

ليلي على حق. لقد قالت إنه مستغرق في ذاته، وها هو ذا الآن يتعذب لعلمه بأنّ عليه فقط أن يبعد أفكارها عن الألم الذي سببه لها، بينما هو يفكّر في نفسه وفي رغباته.

أين هو اهتمامه ومراعاته لها؟

توتره أزعج ليلي ، فهمست بقلق: «هل صدّقت ما قلته لك عن بريت؟».

- نعم.

وصرف بأسنانه وهو يجاهد للسيطرة على موجة عنيفة من المشاعر.

اقتربت منه حتى انعدمت المسافة بينهما تقريباً.

راح قلبها يخفق بسرعة، وعضّت شفتها تحاول أن تكبح تأثيره العنيف على قلبها وجسدها معاً.

ساد الجوّ صمت، وأخذت ليلي نفساً مرتجفاً. لقد عوّدها على حبّه، وها هي ذي الآن لم تعد تستطيع السيطرة على مشاعرها.

نظر إليها وقرأ في عينيها شوقاً يشوبه شعور بالذنب. أمسك رأسها بيده، ثم دنا منها وعانقها.

- لا يمكنني أن أقاومك.

قال هذا بصوت ثخين والرغبة تلتهب في عينيه المتملّكتين.

خفق قلبها إزاء تلك الكلمات وأمام تلك العينين المعجبتين.

لم تحسب يوماً أن كيانها يحتوي كل المشاعر وكأنها بركان خامد ينفجر فجأة. ولا تصوّرت يوماً أنها قد تحبّ رجلاً بقدر ما تحبّ رؤوف. وبينما كانت مستغرقة في تلك الأفكار والتخيلات، أحسّت برؤوف يبتعد عنها فجأة. فأحسّت وكأن قطعة منها انسلخت عنها.

- لماذا؟؟ أعني...؟.

- قد يأتي أحد الخدم ولا أريدهم أن يروني هنا.

قال هذا بصوت منخفض ممزّق لأنه كان يودّ أن يبقيها بين ذراعيه ولكنه في الوقت نفسه لا يستطيع أن يخاطر بسمعتها فقال لها:

- سنتحدث فيما بعد.

توتّرت ليلي عند سماع ما قاله وأدركت بذعر أن عليها أن تكون أكثر تعقلاً لتبعد الخطر عن سمعتها.

عبس ذلك الوجه القويّ لخطورة الأفكار التي لم يعد يستطيع

اجتنابها. منذ لحظة وصول ليلي إلى بلاده، كان أنانياً معها، ومتهوّراً في معاملتها فقد أحضرها إلى «سونغول»، وأخذها إلى منزله. ولأن الأقاويل عصب الحياة في بلده، قد يصبح اسم حبيبته على كل شفة ولسان. ذلك أن المستوى الأخلاقي السائد في الأرياف أعلى بكثير مما هو عليه في مجتمع المدينة الماكر.

وإذا وصلت كلمة عن ليلي إلى سمع ضابط الشرطة، طالب حجّار، فإن احترامه لها سيهوي إلى الحضيض.

هنالك طريقة واحدة فقط يمكنه بها أن يحمي ليلي، وهي الزواج. بكل ما يمكن من الشرعية والسرية التي يسمح له بها ثراؤه، سيضع خاتم زواج في إصبعها قبل أن يحصل أي ضرر لسمعتها، إنها تستحق أن تحصل على احترامه وعلى اسمه كذلك.

* * *

٧ ـ زواج في السرّ

لم تظنّ ليلي أن بإمكانها أن تنام مجدداً، ولكنها ما أن وضعت رأسها على الوسادة، حتى غطّت في نوم عميق، ولم تستيقظ إلاّ عندما أدخلت الخادمة صينية محمّلة بالطعام. وأجفلت عندما رأت أن الساعة تناهز الثانية بعد الظهر. وكان هذا ضريبة ما عانته من إرهاق منذ وصولها إلى تركيا.

كل ما كانت تفكّر فيه وهي تتناول الطعام كان رؤوف.

كيف تغيّرت الأمور بسرعة لا تصدّق، منذ وصولها إلى تركيا. أولم تكن مستعدة للقيام بأي شيء تقريباً لكي تحصل على فرصة ثانية مع رؤوف؟ وتوهّج وجهها المضطرب إذ أحسّت بالذنب. تذكرت كيف وافقت على المجيء معه إلى منزله وكيف استسلمت لعناقه أكثر من مرّة، وللحظة قصيرة، تساءلت كيف حوّلها إلى مخلوقة مسيّرة مجرّدة من كل إرادة.

إنّها المرّة الأولى التي تمدّ فيها ليلي يدها لتأخذ ما تريده. وما تريده هو رؤوف. دوماً كانت تريد رؤوف. اعترافها بذلك زادها زهواً لأنها وجدت الشجاعة التي كانت تنقصها ذات يوم. شعرت بأن الحياة عادت إليها بعد زمن طويل. فآخر مرّة شعرت فيها بالسعادة، كانت في ذلك الصيف مع رؤوف منذ ثلاث سنوات. بالنسبة إلى ليلي، ذلك الأمر وحده أكثر أهمية من أي شيء آخر، لأن تلك السعادة البسيطة كانت ستغذّي حياتها كلها.

عندما سمعت صوت طائرة الهليكوبتر تهبط، كانت قد ارتدت ثوباً قطنياً رمادياً تصير الكمين أعارتها إياه هيلاري، فأسرعت إلى النافذة ورأت رؤوف يقفز من الطائرة ويسرع داخلاً إلى المنزل.

قفز قلبها لمجرّد رؤية رأسه المتكبّر ووجهه الرائع والسلطة والقوة الظاهرة على قامته الطويلة وبنيته الصلبة.

كان رؤوف شديد الانشغال ذلك الصباح فقد بدأ بترتيبات زواجه في مدينة جبلية نائية، من غير المحتمل أن يصل إليها الصحفيّون والمصوّرون.

وكان قد استقلّ الطائرة إلى منجم الفحم ليقابل البنّائين الذين خدعهم بريت غيلمان. وبعد جلسة طويلة على الطريقة التركية، استطاع أن يقنعهم بالعدول عن إسقاط الدعوى بحق غيلمان.

وكان مزهوّاً بإنجازه ذلك دونما الحاجة إلى جرح مشاعرهم وإحراجهم، بسبب التعويض الذي كان قد دفعه لهم.

وقف ليتحدث إلى إرماك، مدبّرة منزله التي بدت عليها الكآبة والانزواء منذ حضور ليلي إلى «سونغول». وعندما سألها أين هي ليلي، أشار إليها بكلمة «زوجتي» متظاهراً بأنه لم يلحظ الدهشة والحماسة والارتياح البالغ الذي لم تستطع إرماك إخفاءه. ورغم أنه كان يكره الكذب، إلاّ أنه سبق وفكر في ليلي كما لو أنها زوجته. وعندما تطلّب الأمر أن يحميها ويصلح الخطأ الذي ارتكبه لم يندم.

صعد رؤوف إلى القاعة الكبيرة حيث وجد ليلي. وعندما رأته، نزلت عن الأريكة عند النافذة وتقدّمت نحوه لتحييه. وبلمحة واحدة لاحظ ثوبها غير المنسجم، الذي لا يمكن حتى لجدّة أمه أن ترتديه، فأدرك أن أول هديّة سيشتريها لها عندما تصبح زوجته، هي الملابس.

ـ نمت دهراً كاملاً.

فقال وهو يمسك بيدها الرقيقة برفق: «كان لديّ عمل علي أن أنجزه».

عندما ألقت برأسها إلى الخلف تنظر في عينيه الذهبيتين، أخذ قلبها يخفق كالعادة وتبع ذلك سخونة اكتسحتها وحبست منها الأنفاس. كانت متلهّفة إلى معانقته وشملت كيانها رعشة من الشوق إليه.

تراجع عنها خطوة:

ـ سألتني أمس إن كان من عادتي إحضار كل من أتعرّف عليهنّ إلى منزلي، فأجبتك بأنني لا أفعل هذا مع أيّ كان. وهذا جواب كان يجب أن يجعلني أفكّر جدياً في الأمر.

ـ لست أفهم...

وعندما ترك يدها، سرى خوف بارد في جسدها المتوتّر. أتراه يقول إنه ندم على إحضارها إلى منزله؟

ـ هنا، في بلادي، قد تكون المرأة مساوية للرجل أمام القانون، ولكن إذا عاشت في منزل رجل ستخسر سمعتها.

قال هذا وهو يتأمّل وجهها الشاحب الواجم وعينيها القلقتين، وتابع:

ـ إذا أنا أبقيتك هنا في «سونغول» سيعتبرونك خليلتي. ومهما حدث في المستقبل، تكون سمعتك قد تدمّرت.

خليلته؟ إنّها تحبه، وهو قد حوّل عالمها المملّ إلى عالم من العواطف المشبوبة والمشاعر الجيّاشة. وهي لم تندم على مجيئها إلى منزله.

حدّقت إلى السجادة الرائعة على الأرض، وقالت بخجل:

ـ أنا متفهمة للأمر... وهو ليس مشكلة.

فوجىء رؤوف بهذا الجواب فحدّق إليها بعينين مجفلتين غير مصدّقتين: «ليس مشكلة؟».

تصورت نفسها خليلة لرؤوف لكنها لم تلبث أن عادت إلى الواقع في اللّحظة التي فكّرت فيها بردّة فعل أختها إزاء ذلك الاسم الذي سيطلقونه عليها. ستثور هيلاري غضباً إذا هي قبلت هذا الدور في حياة رؤوف.

قال رؤوف: «أو يمكننا أن نتخذ خياراً بديلاً».

وبدت لمحة من التسلية في عينيه ما لبث أن غشّاها بسرعة:

ـ وهذا خيار علينا أن نقوم به الآن.

وتوتّر وجهه القوي وفمه الجذّاب: «أسرتي لن تقبل أبداً بامرأة نامت في منزلي كعروس لي، وأنا أدين بالاحترام للإثنين، أنت وأسرتي، أكثر مما بدا مني حتى الآن».

وببطء، أخذت ليلي تتنفس مرّة أخرى: «أنت جاد في هذا الأمر، لكنّني لا أصدّقه. لا أستطيع أن أصدّق أنك تقترح أن نتزوج فقط لأنني جئت معك إلى منزلك».

ـ أنا أعلم جيداً جداً. أنا أرغب فيك أكثر من أيّ امرأة أخرى عرفتها، يا حبيبتي.

ازداد تألق عينيها، فأسبلت أهدابها تغطيهما: «لكن هذا ليس سبباً كافياً، أليس كذلك؟ خصوصاً بالنسبة إلى رجل مثلك يكره فكرة الزواج».

كان رؤوف يتوقع أن تقبل ليلي الزواج منه على الفور، حتى قبل أن يكمل حديثه. هل هو متغطرس حقاً إلى هذا الحد؟ وصبغت وجهه حمرة خفيفة وهو يشجع نفسه للعثور على كلام يقنعها به، بعد أن أعطى السبب الوحيد الذي يعتبره هاماً، وكان بسيطاً صريحاً ومنطقياً. إنه يريدها له دائماً.

أجاب: «الناس يتغيّرون».

فقالت بعجز: «لكنك قلت إنك لن تتغير أبداً».

فبسط يديه بنفاد صبر: «لا يجدر بك أن تصدّقي كل ما يقال لك. كان ذلك منذ ثلاث سنوات. وأنا الآن أرى أن الزواج يمكن أن يكون مفيداً لي..».

ـ مفيد...

وتأملت ملامحه الوسيمة الرائعة وقلبها يغوص.

ـ أنا أملك ثلاثة منازل هنا في تركيا، وشقّة في نيويورك وأخرى في لندن. يمكن لزوجتي أن تكون مسؤولة عنها جميعاً، وتكون مضيفتي عندما

أستقبل أحداً. . . ثم أعتقد أنني أريد طفلاً.

وكان هذا طموحاً لم يخطر ببال رؤوف قطّ من قبل. وعندما صدرت هذه الكلمات عنه من تلقاء نفسها، فوجيء بذلك مثلها تماماً.

- أحقاً؟

ونظرت إليه بعينين امتزجت فيهما الدهشة بالأمل. أدرك أنها لم تهتمّ مطلقاً لأملاكه. ولكن تلك الإشارة إلى رغبته في الإنجاب لمست وتراً حساساً منها. وهكذا لم يتردّد، فقال مؤكداً:

- نعم، حقاً. فما هو جوابك إذاً؟.

- أودّ أن أنجب أربعة أولاد.

قالت هذا بذهن شارد وهي تفكّر أن بإمكانها أن تستقر لتهتم وتحب أولاد رؤوف. صحيح أنه لم يقدم لها حبّه وكل ما كانت تحلم به سراً، ولكن إذا كان رؤوف يريد أن يتزوجها فهي لن ترفضه.

قال رؤوف مجفلاً: «أربعة؟».

- إثنان إذن؟

أخذت تساومه وقد أدركت أنها ربما كانت صريحة ومتعجلة أكثر مما ينبغي.

- سنفكر في ذلك. وينبغي أن أعلمك بأن زواجنا سيتمّ غداً عند العصر.

- غداً؟.

شهقت وقد رأت أن لديه الثقة الكافية للذهاب والبدء بالمعاملات حتى قبل أن يتقدم منها للزواج. ولكن نظراً لموقفه السابق من السعادة الزوجية، عليها أن تفكّر في أن إظهاره مثل هذه الحماسة هو شيء مشجّع، والأفضل أن يُكافأ عليه لا أن يلام.

قال رؤوف بجفاء بالغ: «أريد أن يعلم الجميع أننا تزوجنا قبل حضورنا إلى سونغول، وذلك لكي نحظى بيومين نمضيهما وحدنا هنا معاً قبل أن نزفّ للناس بشرى زواجنا. ستكون أسرتي سعيدة للغاية لأنني

وجدت عروساً، أخيراً. ولا أتصوّر أنه سيكون هناك أسئلة مربكة في هذا الموضوع. ستستقبلك الأسرة بصفتك المعجزة الثامنة في العالم. قولي لهم إنك تريدين أن تنجبي أربعة أولاد، فيفرشون لك سجادة حمراء تمتد من هنا إلى اسطنبول. . .».

احمر وجه ليلي، ثم ضحكت: «ماذا سألبس غداً؟».

سألته هذا وهي لا تعرف ما إذا كانت صاحية أو تحلم. فأجاب: «ارتدي ثياباً لا تجلب الكثير من الانتباه إلينا».

يبدو أن ثوب العرس ممنوع عليها. وهبطت كتفاها قليلاً: «هل علينا أن نتزوج بهذا الشكل الخفيّ؟».

- نعم. . . ولكن عندما ينتهي نهار الغد، يمكننا أن نترك هذه البداية خلفنا.

ونظر عابساً إلى وجهها المضطرب، فتنهدت بذهول: «عندما أخبر هيلاري بهذا ستظنّنا مجنونين».

فقال بارتياح: «بصفتي زوجك، سيكون بإمكاني أن أضع حداً للفوضى التي تركها بريت في أثره دون إثارة كثير من الجدل من أسرتك».

إنه رائع للغاية وسيكون زوجها إلى الأبد. أرادت أن ترقص في الغرفة وتقوم بأعمال جنونية حمقاء صبيانية. . ستتزوج. . هل هذا يحدث لها حقاً؟ هل عليها أن تقلق لأنه يتصرف بشكل غير عادي؟

كان ذات يوم رجلاً بالغ الحذر، فلِمَ يتصرف بمثل هذا التهوّر؟

وسألته فجأة: «هل أنت على ما يرام؟».

- لِمَ لا؟ وبالمناسبة، أريد جواز سفرك لأملأ الأوراق الرسمية التي أحضرتها هذا الصباح.

أجابها بذلك بتفكير عمليّ واضح: «أريد أيضاً نسخة عن شهادة ميلادك».

فعادت إليه بالإثنين: «أحضرت معي شهادة ميلاد تحسباً فيما لو ضاع الجواز».

- رائع، كما أنك بحاجة إلى شهادة طبية، وقد تدبّرت أمر ذلك في المدينة نفسها. كما أحضرت شهادتي الطبية أنا أيضاً.

رافقته ليلي إلى غرفة جميلة مشمسة تغطي جدرانها رفوف الكتب:

«كم سيستغرق من الوقت عثورك على معلومات تتعلق بذلك الحساب المصرفي في لندن؟».

فنظر إليها بحدّة: «لماذا؟».

- لأنني، عندما تنتهي هذه المشكلة، يمكنني أن أخبر أختي بما فعله زوجها السابق.

تمتمت بهذا بأسف وهي تراه يقطّب جبينه: «رؤوف... ربما لا تتوقع هيلاري اتصالاً مني حالياً، ولكن إذا لم أتصل بها قريباً ستقلق. يمكنني فقط أن أتصل بها بواسطة هاتفي الخليوي... ما رأيك».

فجمد مكانه: «هل لديك هاتف خليوي؟».

- نعم...

- كانت شكوكي بالغة أمس، بحيث أنني لو علمت أن لديك هاتفاً خليوياً، لأخذته منك. أرجو أن أحصل على المعلومات التي طلبتها خلال اليومين القادمين. اتصلي بأختك وأخبريها بأنك بخير. وعندما أحصل على كل الحقائق، سنذهب معاً إلى انكلترا ونزفّ إليهم الأخبار السارّة والسيئة معاً، وجهاً لوجه.

- ستكون تلك الطريقة أفضل بكثير.

ومنحته ابتسامة متألقة.

انحنى رؤوف إلى الأمام وطبع قبلة على جبينها. فألقت بذراعيها حول عنقه وجسدها ينبض شوقاً. تأوّه محبطاً، وأبعدها عنه وقد تألّقت عيناه:

- علينا أن نحترم التقاليد...

عبس الوجه القوي بحزم وعناد. ثم أخذ رؤوف جوازها وتاريخ ميلادها وراح يملأ الأوراق الرسمية التي تحدّث عنها.

لقد حوّلها إلى امرأة أخرى بسرعة تحبس الأنفاس، كما اعترفت

لنفسها عندما استلقت فيما بعد في سريرها وهي من السعادة والحماسة بحيث لم تستطع النوم.

عند الساعة الثالثة من عصر اليوم التالي، أخذت ليلي تحسّس «محبس» الزواج في إصبعها، وتشمّ رائحة الزنابق البيضاء الرائعة التي أعطاها إياها رؤوف، ثم وقفت بجانبه ليشكرا القاضي الذي ترأس الاحتفال.

- ماذا قال؟

أخذت ليلي تلحّ على رؤوف ليترجم لها ما قاله القاضي، عندما قادها رؤوف إلى ساحة المدينة المشمسة المهجورة، حيث كانت سيارة انتظارهما لتنقلهما إلى الهليكوبتر.

- قال إنّك من دون شك أجمل عروس شرّفت مكتبه المتواضع.

وألقى عليها نظرة إعجاب جانبية، ثم قفز إلى الطائرة بجانبها. بدت في قبعتها الصيفية المصنوعة من القش وثوبها الوردي البسيط، رائعة الجمال فضغط على يدها بزهو متملك.

وفي «سونغول» تناولا العشاء تحت العريشة، وجلسا طويلاً يحتسيان القهوة. وأخيراً، سار رؤوف ليتصل بأسرته ويخبرهما بزواجه:

- سأتصل بأبي فقط وهو سيخبر بقية أفراد الأسرة.

بعد أن ارتاحت في الظل فترة، سمعت ليلي رنيناً قصيراً غريباً. وبقيت لحظة تتساءل عمّا عساه أن يكون، قبل أن تدرك أنه لا بدّ هاتفها الخليوي.

أخذت الهاتف بسرعة وأجابت.

- أنا بريت...

لدى سماع هذا الصوت المرعب المألوف، انتصبت ليلي في جلستها وقد اقشعرّ جلدها:

- بريت؟ ماذا تريد؟

وكان رؤوف عائداً بعد أن أجرى مخابرته، فسمع من عند الباب ليلي

تنطق باسم بريت فجمّدته الدهشة مكانه في الردهة.

سألها بريت بجفاء: «ما الذي تفعلينه في تركيا؟».

سمّرها الخوف الذي يبعثه بريت دوماً في كيانها، فأخذت تفـ تهدىء به أعصابها. وعندما فكرت في السرقة والكذب والغش الذ استخدمه بريت ليسلب أسرتها، أعماها الغضب وقهر الاشمئزاز الم خوفها ذاك. ولكن عندما أوشكت على أن توبخ بريت لانعدام ضميره، عادت فجمدت وهي تتذكر أن رؤوف لا يريد أن يعلم بريت أن جرائـ كُشفت فيأخذ حذره.

قال بريت بلؤم وحدّة: «إذا كنت تحاولين أن تسببي لي المشاكل مرّ أخرى أو تدسي أنفك حيث لا ينبغي لك ذلك، فستدفعين الثمن!».

شعرت ليلي بالغثيان: «ليس لديّ فكرة عما يجعلك تتحدث بهذا الشكل. أنا هنا فقط أراجع الطرق السياحية لأجل هيلاري...».

ـ لا تكذبي عليّ...

ـ أنا ورؤوف تزوجنا لتوّنا.

سمعت نفسها تقول ذلك فأجفلت لجبنها، لأنها استعملت رؤوف آملة أن يرهبه هذا الخبر.

فسألها غير مصدق: «تزوجتما؟».

فأجابت بغضب عنيف: «نعم، تزوجنا. دعني وشأني! لا يمكنك أن تهددني الآن ولا أريد أي صلة بك بعد اليوم...».

ـ كازابيان تزوجك... هذا عجيب!

وفجأة انفجر ضاحكاً، وكأنها أخبرته نكتة مضحكة.

ـ آه، يا له من عالم رائع، يا للحزن الذي سيحدث إذا ابتدأ العريس ينقّب عن الحقائق!

ـ ما الذي تتحدث عنه؟

هتفت تقول هذا بمزيج من الغضب والخوف وقد أقلقها جوابه الساخر.

ـ إذا حصل سوء، من الأفضل أن تحميني، وإن لم تفعلي سينتهي زواجك ذاك في صندوق القمامة هو أيضاً. إلى اللقاء قريباً، يا ليلي!

وعندما أقفل بريت الخط بقيت متشبثة بالهاتف وهي تحدق في الفراغ.

إلى اللقاء قريباً؟ واقشعر جلدها لهذا التهديد الضمني.

هل من الممكن أن يكون بريت في تركيا؟ وراجعت الرقم المسجّل في ذاكرة هاتفها لتتأكد من مصدر المكالمة، وتملكها الارتياح وهي ترى أنه حدّثها من إنكلترا. كان بريت يحاول إخافتها فقط. وحدّثها المنطق بأن آخر مكان يريد بريت أن يراه هو مسرح جريمته. ولكن ما هو السؤال الذي يؤلمه؟ هل هما المنزلان اللذان لم يبنهما قط؟ أم التزوير المحتمل الذي اشتبه رؤوف فيه بالنسبة إلى الاختلاط بين الإسمين في الحساب في المصرف؟ ولكن ما الذي يجعل بريت يعتقد أنّ عليها أن تحميه؟ هل لأجل أسرتها؟ أم لأجل المظاهر؟

حسناً، هذه المرّة ليس لدى بريت أمل، كما أخذت ليلي تفكّر بغضب. لن تسمح لنفسها بعد الآن، ومهما كان الثمن، بأن تخاف من تهديد بريت.

أرهقت أعصاب رؤوف بسبب هذه المحاورة التي سمعها، فأخذ نفساً مرتجفاً، واستدار مبتعداً، وقد جعله الحذر يقاوم رغبة غريزية في مواجهة ليلي على الفور. واتجه بدلاً من ذلك إلى السلّم. ذلك أنه ما كاد يسيطر أخيراً على شكوكه في صدق ليلي، حتى سمع الحقيقة التي نطقت بها بلسانها. ساورته الشكوك لاتصال بريت بليلي...! بعد ذلك الطلاق المرّ، لماذا يتصل بأخت زوجته السابقة، إلا إذا كان بينهما علاقة خارجة عن الحدود الطبيعية؟ ولماذا يتصل بها أصلاً، بينما اعترفت ليلي بصراحة بكراهيتها له؟

ـ دعني وشأني. لا يمكنك أن تهددني الآن. ولا أريد أيّ صلة بك بعد اليوم!

لا بد أن ليلي، في وقت ما، كانت تحبّ بريت غيلمان. ولمَ لا؟ فغيلمان أكبر من زوجته السابقة بأكثر من خمس سنوات. وهو من النوع الذي تحبّه أكثر النساء. ربما لم تفصح ليلي عن حبّها لزوج أختها، لكن يبدو أن بريت أدرك الأمر تماماً، وربما يكون قد شجّع هذه المشاعر فحاول أن يستغلها لمصلحته الخاصة. ربما شعرت ليلي بالذنب وأرادت أن تعترف لأختها بكل شيء، عند ذلك هدّدها بريت بأن يخبر زوجته أنها حاولت أن تقيم علاقة معه؟

عندما وصل رؤوف إلى قمّة السلم، أحضرت أرماك إليه الهاتف فأجاب على المخابرة. كانت أمه على الطرف الآخر من الخط وبدت متحمّسة إلى أقصى حدّ بعد أن سمعت من أبيه لتوّها أن ابنها قد تزوّج، ولم يقل رؤوف شيئاً عندما لامته أمه على زواجه سراً، وطلبت منه أن يحضر العروس إلى اسطنبول لكي يقيموا عرساً حقيقياً في الأسرة.

ثم تكلمت معه جدته وقالت له إنه بعد أن جعل أسرته المسكينة تنتظر نصف عمرها ريثما يجد عروساً، عليه حقاً أن يقيم عرساً تقليدياً وفخماً كما يجب. ومرة أخرى لم يقل رؤوف شيئاً لأن التقاليد تقضي بألاّ يقاطع الحديث بكلمة وإلا اعتُبر ذلك عدم احترام شائن.

ثم جاء دور جدّة أمّه، نور الصباح، فأخذت الهاتف وأخبرته بمدى سعادتها، ثم أخذت بعد ذلك تحدّثه عن ذكريات عرسها هي، وكيف استمرت الأفراح أربعين يوماً وليلة. ثم أصدرت شهقة صغيرة عندما بيّنت له كيف أن الجميع سيصاب بصدمة حين يعلم أن ابن حفيدتها قد تزوج دون حضور الأسرة. وطبعاً، أبسط الطرق للخروج من تلك الورطة، كما همست «نور الصباح» بعطف، هو إقامة عرس آخر والتصرّف كما لو أن ذاك الزواج لم يحدث قط.

ـ كما تريدين...

تمتم رؤوف بذلك، وهو لا يكاد يستوعب ما يسمعه لكنه كان واعياً إلى أن مزيداً من الشعور بالذنب كان يلوح في أفقه.

سألته نور الصباح بصوت مرتعش: «هل أنت بخير؟».

ـ على أحسن ما يرام.

وتنفس بعمق وهو يعلم أنه يكذب.

ـ أحضر ليلي إلى البيت غداً وسنهتم بكل ما يلزم.

قالت له الجدّة هذا، ثم انهت المكالمة بأسرع ممّا كان يتوقّع.

كان غضبه العنيف الناتج عن تلك الصدمة ينتشر في كيانه كالحمم البركانية الذائبة. ولكن ماذا عليه أن يقول لليلي؟ وكيف عساه يقوله لها؟

كل ما حيّره في علاقته السابقة مع ليلي قد اتضح الآن. كراهيتها السابقة لأن يلمسها. اعتراضها على زيارة أسرتها. عندما قابلها في لندن لأول مرة، هل كانت تحاول أن تنسى حبها لزوج أختها؟ وهل كان زواجها معه جزءاً من تلك المحاولة؟

في تلك الأيام، لم تحبّه ليلي، ولم ترغب فيه، ولا كانت بحاجة إليه. أما قولها مؤخراً إنها (كانت) تحبه حينذاك، فكان من باب تمنّيها أن تنسى ما كان يُشعرها بالذنب. كيف يمكن أن تكون قد أحبته بينما من الواضح أنّ بريت هو الذي كان يهمّها؟ وعلى كل حال، ليلي تريده هو الآن، كما أخذ يذكّر نفسه بعناد. ولكن هل ما زالت تحنّ إلى بريت؟ الحقيقة هي أنها، وإن كانت قطعت علاقتها مع الرجل، فهذا لا يعني أنها وقعت عن حبّه... ولا يعني أنها لن تحاول إخراجه من مأزقه إذا سنحت لها فرصة! فلطالما وقعت نساء عاقلات في غرام مجرمين قساة وبقين في توق إلى استعادتهم!

إضافة إلى ذلك، لن ترضى ليلي أن يقتل هو غيلمان بيديه. مع أنه، في هذه اللحظة، يشعر برغبة في ذلك.

ماذا ستكون ردّة فعل ليلي إذا ذهب بريت إلى السجن؟ وزفر رؤوف زفرة طويلة، شاعراً بأنه لم يعد يتحلى بشيء من المنطق. لكن ليلي زوجته، وهو لن يقول لها شيئاً... إنه لا يستطيع أن يقول شيئاً! الوقوع في غرام شخص غير مناسب ليس بجريمة. وفي الواقع يبدو واضحاً أن

ليلي قد تصرفت كما كان ينبغي أن تتصرف بالضبط في مثل ظروفها فتركت بيتها وسكنت بعيداً وقاومت الإغراء. والمفروض أن يفتخر بها لذلك، كما أخذ رؤوف يحدّث نفسه بعنف. لكن هذه كانت خطوة بعيدة جداً عنه في هذه اللحظة، فهو ما زال محطّماً لما عرفه.

سارت ليلي شاحبة متوتّرة لتبحث عن رؤوف. كان في قاعة الجلوس ينتظر من النافذة.

لاحظت تصلّبه الواضح في كتفيه العريضتين حين قام بحركة مفاجئة تنقصها مرونته المعتادة الرشيقة.

ـ أظن أن أسرتك حتماً مستاءة لزواجك من امرأة لا يعرفونها...

قالت ليلي هذا وهي تتنهّد بتعاسة، ظنّاً منها أن هذا هو السبب الذي منعه من العودة إليها بعد انتهائه من المكالمة الهاتفيّة.

أغمض رؤوف عينيه لحظة، ثم استدار إليها: «لا، مطلقاً، ثم أنك قابلت جدة أمي فترة قصيرة».

ـ ربما يفكرن في أنك اقترفت أكبر غلطة في حياتك... بزواجك المفاجيء من غريبة.

قالت هذا مصمّمة على أن تعرف الأسوأ.

كانت تحدق فيه، وحاول جهده أن يركز أفكاره.

ـ أخبرت أمي أننا تقابلنا لأول مرة منذ سنوات قليلة. لكن زواجنا بعيداً عن الأسرة وبشكل سريّ هو الذي سبب بعض الاستياء... أظنّ...

وسكت، فقطبت جبينها: «تظنّ ماذا؟».

فقطّب حاجبيه الرائعين: «وعدت الأسرة بأن آخذك إلى اسطنبول غداً».

فقالت بقلق: «آه... لديّ شيء عليّ أن أخبرك به. لقد اتصل بي بريت لتوّه».

تأثر بصدقها ذاك، فأخذ يتأملها وعيناه داكنتان تلمعان بلون الذهب.

وقالت بسرعة تطمئنه: «أنا لم أخبره بأنك ستذهب إليه. إنه يأخذ بنات أختي في نزهة كل يوم جمعة تقريباً، هذا ما يُفترض به أن يفعل على الأقل. لكنهن في معظم الأحيان لا يرونه. ولكن يبدو أنه أخذهن أمس وأخبرته إحدى البنات بأنني هنا. وأظن أن هذا أخافه. قلت له إنني هنا في مهمّة سياحية لأجل هيلاري... كما أنني ذكرت له أيضاً أننا تزوجنا...».

وبأعلى صوتها، كما تذكّر رؤوف وهو يأخذها بين ذراعيه. لم يعلّق بشيء على اتصال بريت، ما أثار عجبها. غمرها حنانه بمشاعر مشبوبة حتى كادت ترتجف. ودفنت يديها في شعره الكثّ الأسود واستسلمت لعناقه.

وعادت ذكرى اتصال بريت إلى ذهنها، فسألته: «ألست منزعجاً لاتصال بريت بي؟».

ـ لا، أبداً... اتصاله أمر مفهوم. ولكن دعينا لا نتحدّث عنه في ليلة عرسنا يا حبيبتي.

وجاهد ليحتوي قوله هذا على أقلّ ما يمكن من التوتّر.

ـ ليلة العرس.

همست بذلك شاعرة بالسعادة لأنه لم ينزعج أبداً لاتصال بريت بها.

• • •

٨ ـ ألهذا تزوجتني؟

أجلس رؤوف زوجته على السرير، ثم خلع عنها قبعتها ونزع الدبابيس التي وضعتها لترفع شعرها الرائع.

نظرت إليه بعينين زرقاوين تتألقان كالجواهر، وقالت: «أنا سعيدة جداً».

من تراها تحاول أن تقنع؟ نفسها؟ ونبذ رؤوف هذه الفكرة حالما خطرت له، لكنه سرعان ما فكر في أمر آخر: أتراها حالياً، لا تريد أن تفكّر في بريت؟ بلى وكيف لا تفكر في ذلك الوغد بعد أن اتصل بها لتوّه؟ عليه أن يتخلص من ذلك الهاتف فما حدث مرّة سيحدث مرّة أخرى.

لاحظت توتّر فكه، وانزعجت لصمته غير العادي. وهمست بقلق: «هل ندمت على الزواج بي بهذه السرعة؟».

ـ هل أنت مجنونة؟

هتف ينفي ذلك بعنف وسرعة، ما جعلها ترى في ردّة الفعل المبالغ فيها هذه مجرد تغطية للحقيقة، فلم تقتنع.

ـ لابأس في أن تعترف بذلك، فأنا سرعان ما سأعلم... لقد استعجلنا قليلاً في هذا الأمر.

قالت هذا بتوتّر، فقال باللّهجة نفسها: «لا أستطيع أن أتصور حياتي من دونك».

ـ لكنّني لم أعد إلى حياتك إلاّ منذ أربعة أيام...

ـ أربعة أيام طويلة بما يكفي ثم إنّ الحياة بطولها أمامنا.

تراجع خطوة ليخلع سترته وربطة عنقه وتابع قائلاً:

ـ جدّ أمّي طلب يد «نور الصباح» في أول يوم رآها فيه.

فقالت متأثرة: «الحبّ من أوّل نظرة».

أجاب بتسلية مكبوتة: «أو لأن رجال أسرتها أقسموا على قتله إذا لم يتزوجها».

ـ لا أصدّقك...

ـ بل عليك أن تصدّقيني. كان يجول في القرى الجبلية، فشاهد مصادفة «نور الصباح» تستحم في النهر فأعجبها مظهره، فذهبت إلى إخوتها تتظاهر بأنها تشكو وقاحته. وأعجب مظهره إخوتها أيضاً، لأن رجلاً تركياً يتنزه في القرى هو حتماً رجل ثريّ. وهكذا نزل بعد أربعين يوماً من الجبال متزوجاً، وقال إنه حبّ من النظرة الأولى...

سألته ذاهلة: «ولماذا بعد أربعين يوماً؟».

ـ كانت الأعراس في القرى تطول كثيراً.

ـ وجدّتك؟ كيف تعرفت إلى جدك؟.

ـ بعد كثير من المكر والمهارة، لأن الأهل في تلك الأيام كانوا هم الذين يرتّبون أمور الزواج. ولم يكن يُسمح للبنات بالخروج وحدهن من دون من رفقة. أسقطت جدّتي وشاحها في الشارع فالتقطه جدّي لها، وإذا بالأمر يصبح حبّاً من النظرة الأولى.

قال رؤوف هذا ساخراً: «وكذلك والداي. فقد تبادلا النظرات في أحد الأعراس، فسقطت أمي فريسة للهزال، إلى أن رضي أبوها بأن يزوجها لأبي... وكان حينذاك يريدها أن تتزوج رجلاً آخر».

ـ عائلتك شاعريّة تماماً.

وحاولت ألا تقول ما جال في ذهنها. لكنها، في النهاية، لم تستطع أن تكبح فضولها: «لماذا أنت مختلف عنهم؟».

ـ لأن الفتاة التي ظنّنت، وأنا في التاسعة عشرة من عمري، أنني

أحبها، خانتني مع أحد أصدقائي... لكنّها مع ذلك كانت ستقبل بالزواج بي لأنني كنت الأكثر ثراءً.

عندما قال هذا شعر بالانزعاج، لأن أسرته نفسها لم تكن لديها فكرة كم كان تحقيق أملها الغالي وشيكاً حينذاك.

قالت ليلي بنوع من العطف جعله يصرف بأسنانه: «آه... لا... لا بد أن ذلك كان فظيعاً بالنسبة إليك. كيف عرفت بحبّهما؟».

- رأيتهما يتبادلان القُبل في إحدى الحفلات.

وهزّ رؤوف كتفيه معبّراً عن انتهاء الأمر: «لم تكن مسألة هامّة وقد نسيتها. إياك أن تظني أنني أصبحت ضد الزواج بسبب تلك التجربة».

- كلا بالطبع...

ابتلعت ريقها بصعوبة، لكنها استطاعت أن تتصوّر مدى حساسيته وسرعة تأثره في طور المراهقة، خصوصاً وأنه قد تربّى على الإيمان بالحب من النظرة الأولى.

- هل هي إحدى الفتيات اللواتي كانت أسرتك قد اختارتهن لك للزواج؟

- نعم، ولكن ما الذي جعلنا نفتح هذا الموضوع بحق السماء؟

فعلت ليلي شيئاً لم تفعله قطّ من قبل. رأت أن عليها أن تلهيه عن كل ذلك، فمدّت يديها إلى ظهرها وفتحت سحّاب ثوبها، ثم أخرجت ذراعيها من الكمّين وتركت ثوبها يسقط على الأرض عند قدميها.

ثار في صدر رؤوف ألم غريب. لم يستطع أن يفهم لماذا لم يضحك عندما تألقت خارج ثوبها في ذلك الجوّ المتدفق بالجرأة والتوتر وهي تقف كاشفة عن قميص داخلي قطني أبيض بطول الثوب.

نشدّها إليه بقوة. وعندما ارتجفت، همس في أذنها: «أتريدينني؟».

- لا أستطيع مقاومتك.

أغمضت عينيها بشدة ولم تستطع أن تفكر في شيء غير السعادة التي

شعر بها معه.

كادت تذوب بين ذراعيه وهو يضمّها إلى صدره القوي. ولم يصدر عنها صوت عندما حملها إلى السرير.

وأمرها قائلاً: «انظري إليّ».

فتحت عينيها الناعستين شاعرة وكأن العالم كله أصبح بين يديها الآن بعد أن تزوجت بالرجل الذي تحب.

- بماذا تفكرين؟

- بك...

واحمرّ وجهها.

أشرق وجهه بابتسامة متألقة، وقال بصوت رقيق: «لم تعتادي التفكير بي».

- بل فعلت...

وعندما نظر إليها غير مصدق، نهضت على مرفقها مجاهدة للعثور على الكلمات المناسبة للإيضاح.

- كنت أحاول أن أجعل الحلم حقيقة.. فلم... لم أستطع...

ولماذا؟ لأن بريت استولى على قلبها، كما أخذ رؤوف يفكر بغضب وحقد، وهو يستدير ليلقي بساعته على المنضدة.

- لكنني أستطيع الآن.

قالت ذلك وهي تلاحظ توتّر ملامحه، شاعرة بذبذبات خطيرة تنبعث من جسده، وتحاول أن تتذكر ماذا قالت ليحدث كل هذا التأثير.

- سأحقق لك كل أحلامك.

قال هذا وكأنها كانت تتحداه.

- لكنك حققتها لي.

قالت هذا بصوت منخفض وهي تتأمل وجهه الوسيم وجسده الرشيق لتسارع خفقات قلبها.

شعرت ليلي بأنها تذوب بين ذراعي زوجها. نظرت إليه فدار رأسها

من السعادة التي تشعر بها، لأنها شعرت الآن، بعد أن تزوجا، بأنه أصبح أخيراً ملكها.

فمن يصدق أن رؤوف أصبح زوجها، حبّها الكبير والوحيد، والذي ظنّت أنه ضاع منها إلى الأبد؟ راحت تنظر إليه بلهفة وحنان لا ينتهيان.

وتأوّهت: «رؤوف...».

فقال بصوت أبح: «رؤوف بين يديك يا حبيبتي».

غاب عن ليلي كل حس بالزمان والمكان، نتيجة تلك السعادة التي منحها إيّاها وأحسّت بنفسها تعلو وتحلّق عالياً في سماء من الحب والألوان.

فكّرت ليلي في أنها سعيدة جداً بقرب رؤوف ولكن آلمها كثيراً أن يعانقها من دون أن يقول لها إنه يحبها. كما لو أنه يقوم بواجب الزوج تجاه زوجته، لا أقل ولا أكثر.

ابتعدت ليلي عنه وكبحت آهة في صدرها، عالمة أن عليها ألاّ تنطق بما تريد قوله... لكنها ستنطق به على كل حال لأن عدم حبه لها يؤذيها كثيراً:

- أشعر بأنك لست رومنسياً؟

- وهل كان بريت رومنسياً؟

طرفت ليلي بعينيها ثم التفتت إليه باضطراب: «وما علاقة بريت بذلك؟».

فقال بحلاوة العسل: «كنت أتساءل فقط».

- حسناً، وما أدراني؟

وعبست ثم أشاحت بوجهها مرّة أخرى وهي تفكر في الطريقة التي يسيطر فيها رؤوف عليها.

قال وهو يعود فيحتضنها: «يمكنني أن أكون رومنسياً...».

فتصلّب جسدها: «لا أظن».

- لا تكوني قاسية... أنا لا أتوقع هذا منك.

لم يسبق لليلي أن تسبّبت لنفسها بتهمة كهذه في حياتها. . قاسية؟

راح رؤوف يتأملها بنسلية ماكرة من عينيه الذهبيتين وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة كسول. فلم تستطع ليلي إلاّ أن تضحك لتلك العينين الساحرتين. وأخذت تفكر في سرعته الفائقة في تغيير مزاجها وذلك التأثير الذي يتمتع به.

رفع يدها ووضع في إصبعها خاتماً من الماس بجانب «محبس» الزواج. وهو يقول:

- أليس هذا رومنسياً؟

- من أين جاء هذا الخاتم؟

- وضعته تحت الوسادة قبل أن أصعد إلى السرير.

أخذت تحدّق في الخاتم الرائع المتألق.

مال رؤوف فوقها: «والآن ما رأيك؟».

- يا إلهي. . إنه خاتم رائع.

وتنهدت، شاعرة بتعب فظيع من هذا النهار الطويل.

كان رؤوف يكره الانتقاد وهذه ليلة عرسهما وبالتالي لم يكن الوقت مناسباً لكي تخبره بأنها متعبة جداً.

نظر إليها برقّة، ثم تمدد بجانبها مجدداً.

كان يشعر هو أيضاً بالتعب والتماس.

والتصقت به بابتسامة ناعسة: «لا أستطيع أن أبقي عينيّ مفتوحتين. وأنا لا أريد أن أبدو أشبه بعجوز شمطاء عندما أقابل أسرتك غداً».

فقال وهو يشدّها إليه: «لا يمكن أن تبدي عجوزاً شمطاء حتى ولو حاولت ذلك».

استلقى وهو يحاول ألاّ يتساءل إن كانت ستنام وتتركه لو أنه كان بريت. ولا يعني ذلك أنه غيور، بل هي مجرد رهافة في الإحساس. ربما هي زوجته، لكنه لن يخدع نفسه أكثر مما ينبغي، فلماذا يمكث في السرير حتى العاشرة مساء مستيقظاً تماماً ويحتضنها بشدة وكأنها ستحاول أن

تهرب منه؟ إنها زوجته ولن تذهب إلى أي مكان. وإذا فعلت ذلك يوماً ما، فهو سرعان ما يستعيدها.

بعد أن فكر في كل الأمور وجد بأنه أفضل حالاً مما كان عليه عندما سمع الاتصال الهاتفي. ثم أخذ يفكر بارتياح في كل الأشياء التي يحبها فيها: رائحة شعرها، نعومة، زرقة عينيها وتألقهما حين تبتسم، وثقتها فيه، رغم أن ثقته هو بها ما زالت تشكّل له تحدّياً.

ولن يخبرها أبداً أنه اشترى ذلك الخاتم الماسي منذ ثلاث سنوات.

في الصباح التالي تناولت ليلي فطورها في السرير ووعدت رؤوف بألاّ تتأخر أكثر من نصف ساعة.. ثم استعرضت كلّ ثيابها حتى استقر رأيها على تنورة ليلكية وقميص ملائم يبدو أكثر انزاناً وأناقة من أي شيء آخر تملكه. لكنها عندما خرجت من غرفتها لاهثة، كانت مديرة المنزل تنتظرها معترضة طريقها مع خادمة تحسن الإنكليزية، أوضحت لها أن أرماك تريد أن تأخذ ليلي في جولة في المنزل. فوافقت ليلي على ذلك لئلاّ تجرحها إذا رفضت، وابتسمت راجية أن يكون رؤوف صبوراً.

لقد عشقت «سونغول». إنه مكان استثنائي، سمح لها برؤية رؤوف مرّة أخرى بعد فراق دام ثلاث سنوات. كانت تقف أمام خزانة عالية فسيحة، تنظر إليها معجبة عندما ظهر رؤوف ووقف يتأملها بألم.

ـ علينا أن نكون في المطار بعد أقل من ساعة.

وعندما مرّ بباب مكتبه دخل ووقف ينتظر خروج الأوراق من آلة الفاكس ووضعها بسرعة في الملفّ على المكتب، ثم حمل الملفّ ولحق بها.

ـ لو لم يكن لديّ عمل مهمّ لبقيت في السرير مدة أطول.

وفي الممرّ الظليل الذي يؤدي إلى موقف الهيلكوبتر، وقف يتأملها بإعجاب، ثم أحاط خصرها بيده ليقودها إلى الطائرة.

في مطار «بودرام»، لم تستطع إلا أن تتأثر بمظهر الطائرة النفاثة الخاصة التي كانت بانتظارهما.

ـ يا لهذه الطريقة المترفة في السفر!.

قالت هذا بعد أن انطلقت بهما الطائرة، وهي تتأمل المقصورة الكبيرة المترفة، والمساحة الكبيرة التي تحيط بمقعدها.

لم يأت جواب من عريسها، فابتسمت. كان رؤوف مستقراً أمام مكتب أمامه وقد وضع فوقه كمبيوتر مفتوح ينتظر، وقد بدا أن اهتمامه الكامل موجّه إلى محتويات الملف الذي أحضره معه.

لم يكن رؤوف يدرك أن إحدى رسائل الفاكس التي وصلته قبل أن يغادر سونغول كانت جواباً من المصرف التركي في لندن. لذا عندما ألقى نظرة على الورقة قبل أن يودعها الملف، لم يستطع في البداية أن يفهم لماذا كان اسم ليلي مطبوعاً فيها. ثم عاد فرأى اسم بريت غيلمان أيضاً، فبدأ يفهم الأمر.. ذلك أن رؤوف لم يشأ أن يصدّق البراهين التي أمام عينيه.

لا بد أن هناك خطأ! وألقى نظرة جانبية على ليلي من تحت أهدابه السوداء. كانت تنظر إليه فمنحته ابتسامة مشرقة وكأن لا شيء في العالم يشغل بالها.

ـ ليلي؟

قال هذا بصوت خافت من دون أن يظهر أي تعبير على وجهه.

أجفلتها نبرة صوته فنظرت إلى عينيه الثاقبتين: «ما الأمر؟».

نهض رؤوف بحركة قويّة واحدة وأخذ يحدّق إليها دون أن تتحرك في وجهه الأسمر عضلة واحدة.

ـ لا بد أنك كنت تدركين أنني سأعلم..! هل لهذا تزوجتني؟.

قطّبت جبينها: «ما الأمر بحق الله؟».

فعاد يجلس أمام المكتب، وقد ابتدأ الشك والغضب يشتعلان داخله. لقد سهّل عليها الأمر كثيراً. لم يستطع أن يصدّق مدى غبائه.

لقد أوقعته في شباكها وهو الذي كان يظن أنه يسيطر على الأمور. في غضون أربعة أيام، وضع خاتم الزواج في إصبعها، وبهذا الإنجاز وحده

جعلت نفسها آمنة من كل تهديد.

ورغم كل شيء، لم يعد مهماً ما اكتشفه الآن حقاً، فهي بإمكانها أن تجلس هكذا وهي تنظر إليه متسائلة بأدب، لأنه من غير المحتمل أن يقاضي زوجته بطبيعة الحال. لقد تزوج لصّة، لصّة كاذبة جشعة قد تآمرت مع بريت غيلمان على سلبه أكثر من مئتي ألف دولار.

اختطف رسالة الفاكس ودفعها أمامها بعنف.

رفعت ليلي الورقة وحاولت أن تقرأ، لتعود فتقول: «لكن هذه الورقة مكتوبة بالتركية..».

- أنا واثق أن بمقدورك أن تقرئي اسمك واسم بريت فيها.

قال هذا ساخراً فرفعت نظرها إليه وأخافتها نظراته المنهمة الكئيبة.

- اسمي واسم بريت؟ ما هذه؟ من أين حصلت عليها؟.

- أنت وغيلمان فتحتما معاً ذلك الحساب المصرفي باسم «مار ماريس ميديا انكوربورتد».

قال هذا بنعومة جعلتها تتوتّر لسماعه: «أحزري ماذا؟.. لقد دخلت جنيّات صغيرات وأفرغن الحساب كما توقّعت أنا تماماً!».

***

٩ ـ أعراف وتقاليد

شحب وجه ليلي عندما استوعبت أخيراً ما كان يقوله. وقالت باحتجاج: «أنا لم أفتح أيّ حساب مصرفي مع بريت».

- بل فعلت ذلك. والدليل هنا في هذه الورقة.. في هذا الفاكس.

قال هذا بلهجة حادة قاسية، وملامحه الرائعة جامدة شاحبة للغاية.

- إذن، لا بد من خطأ ما.. أو أن بريت ادّعى عليّ بذلك. هذا هو التفسير الوحيد الممكن!

ردّت عليه بذلك بعنف وإذ لم تعد تطيق رؤيته واقفاً فوقها كبناء مرتفع يلقي ظلاً متوعداً، قفزت عن كرسيها.

- لا تضيّعي وقتي، فأنا لا أصدقك. أنت تآمرت مع بريت لتسرقاني.

أخذت ليلي ترتجف رعباً وإحباطاً. إذ رأت، كما يبدو، أنها أدينت من دون أن تتمكن من التفوّه بكلمة للدفاع عن نفسها.

- هذا ليس صحيحاً. كيف تظن أن بإمكاني أن أفعل شيئاً كهذا؟ بحق الله، أنا زوجتك!

قالت هذا باشمئزاز وصدمة بالغة. وأظلم وجه رؤوف وبسط يديه بعنف: «نعم، أنت عروسي. ويا لها من ضربة موفقة حصلت عليها مني، أليس كذلك؟ لا بد أنك كنت تسخرين مني طوال الوقت...».

- هذا يكفي، أنا لن أحاول حتى أن أتكلم معك وأنت في مزاجك هذا...

www.elromancia.com

- بل ستتكلمين.

وأطبق بيديه القويتين على معصميها قبل أن تفعل ما تنويه وتعود إلى مقعدها:

- وأنا أحذرك.. طريقتك المعتادة في البكاء بالغة التأثير لكنها لن تسكتني هذه المرة!

- في هذه اللحظة، يا رؤوف كازابيان...

وانتزعت معصميها من قبضته، وعيناها الزرقاوان تلتهبان كالياقوت الأزرق فوق ملامحها الجذّابة المظلمة: «... لن أبكي حتى ولو ربطتني إلى خشبة وهدّدت بحرقي!».

- أخيراً، هذا خبر جيد. وأظنك تودّين أن تعلمي متى وأين ابتدأت شكوكي بك وبريت...

- داخل مخيلتك الخصبة للغاية.

غضب لتهكمها هذا منه، فرمقها بنظرة محرقة متوعداً:

- تيسير غوديان. هل تتذكرينه؟... هل تتذكرينه؟.

فتمتمت بحيرة: «السيد غوديان، آخر محاسب لديك... الرجل الذي جاء إلى إنكلترا لكي يتأكد من وضع «سفريات هاريس» منذ ثلاث سنوات؟».

- كان تيسير رجلاً بالغ الفطنة. آخر يوم أمضيته في بيتكم، قلت إنك ستذهبين إلى وكالة السفر للمساعدة، لأن الموظفة كانت مريضة. وكان تيسير هناك يراجع الحسابات وكذلك كنت أنت وبريت. على الرغم من أن تيسير لم ير شيئاً مؤكداً، إلا أنه رأى ما يكفي لكي يثير اهتمامه....

- ماذا تعني؟

- لم يكن لدى تيسير فكرة عن علاقتي بك. وفي وقت لاحق ذلك الصباح، قال لي: ثمة خطب في علاقة الصهر بريت.. وليلي، أخت الزوجة الصغيرة، فهما لا يتصرفان مع بعضهما البعض كما يتصرف أفراد الأسرة الطيبيون.

أجفلت ليلي حين سمعت هذا. هل لاحظ تيسير غوديان خوفها وتوتر أعصابها عندما ظنت أنها وحدها مع صهرها في المكتب الأمامي، وارتياحها الكبير حين عرفت أن الرجل المسنّ كان في الغرفة الخلفية يراجع الحسابات؟

نعم، كما قال رؤوف؛ تيسير كان رجلاً بالغ الفطنة، ولأنه غريب رأى ما لا يراه الأقربون. لكن رؤوف اعتبر تلك الكلمات الذكية تحذيراً وأساء فهمها تماماً.

- لم أهتم بالأمر ولم أطرح أي أسئلة، لكنني فهمت تماماً معنى كلام تيسير بعد أن انتظرت في موقف السيارات ذاك، ورأيتك تخرجين من ذلك الفندق مع بريت! على الرغم من أنك ترفضين الاعتراف بذلك، دوماً كنت تحبين صهرك...

قال هذا يدينها بازدراء وخشونة. فقالت تجادله ثائرة الغضب وتؤكد كلامها: «ليس هذا ما رآه الرجل بيني وبين بريت. من المؤسف أنك لم تسأل تيسير أن يفسر لك ما كان يعنيه...».

- أتظنينني كنت سأحط من قدري إلى مستوى الحديث عنك مع رجل لا يعمل فقط لحسابي، إنما هو أيضاً صديق الأسرة؟

قال هذا بترفّع، فراحت تدينه بتعنيف غاضب وقد فهمت ما جعل رؤوف يشك في علاقتها بصهرها:

- لو فعلت ذلك لربما وفرت عليّ وعليك الكثير من التعاسة. ولكنك فهمت من كلامه هذا ما كنت تريد أن تعتقده.

- وما الذي يُفترض أن يعني ذلك؟ لقد ابتعدنا كثيراً عن الموضوع الرئيسي.

قال هذا بعنف وعيناه مسمرّتان على وجهها المتوهج:

- ثبت أنّ كل شكوكي في استقامتك ونزاهتك صحيحة.

- وقد أراحك هذا، أليس كذلك؟

أخذت تتأمله بعجب، وقد بدأ ينمو في داخلها غضب قوي بشكل لم

تعرفه من قبل.

- تعتقد بأنني كنت أحب بريت، وأنني أخذتك إلى بيتنا فقط لكي تستثمر في «سفريات هاريس»، وأن دافعي الوحيد كان طوال الوقت هو أن أغني بريت وأضع يديّ الجشعتين على أموالك التعيسة؟.

توتر فكّه لأن ما أثار غيظه هو أنها، حتى وهو يضع البراهين أمامها، بقيت تكافح لكي تصوّر نفسها ضحية مسكينة.

- نعم، هذا ما أعتقده.

أطلقت ليلي ضحكة قصيرة خشنة: «إذن، أنا واثقة من أن هذه أيضاً لن تكون مفاجأة لك أيضاً، وهي أنني نادمة جداً على أنني تزوجتك أمس!».

- لو أنك لست زوجتي لسلمتك إلى الشرطة على الفور.

قال هذا زائراً كالأسد داحضاً كلامها، ما جعلها تهتز في وقفتها: «ما يعزيني هو أنهم أفضل منك في التحري عن حقائق الجرائم... لأن تلك وظيفتهم».

قالت هذا بأسى، وإحساسها القوي بالظلم قد تعاظم عندما أخذت تفكر في كل ما ظنها قادرة على فعله:

- والآن، هيا سلمني إلى الشرطة، لأنني لا أريد أن تكون لي أي علاقة بك بعد الآن.

- دعيني أخبرك بأنك بعد عدة ليالٍ تمضيتها في زنزانة السجن، لن تكوني بهذه الوقاحة والسفاهة.

قذفها بهذه الكلمات وقد زاده سخطاً ما اعتبره تصريحاً سخيفاً منها.

- والأكثر من ذلك أنك تزوجتني لعلمك أنك بهذا تحمين نفسك من تهديدي لك بالسجن.

- يا إلهي...

هتفت بذلك بصوت مرتعش وقد التهب وجهها غضباً: «عليّ أن أؤلف كتاباً عن قصة حياتي بصفتي مغامرة شريرة عديمة الضمير.. لكنني

لا أبدو ناجحة تماماً في هذه الأمور، أليس كذلك؟».

- ماذا تعنين.

- حسناً، حسب قولك، أنا أحببت بريت وكذبت وخدعت وسرقت لأجله، ولكن الغريب في الأمر أنني لم أجد الشجاعة لأهرب معه.

قالت هذا وهي تحملق فيه متسائلة: «كما أنني في الواقع، دوماً مفلسة حتى يحين موعد راتبي للشهر القادم، لذا يبدو أنني فاشلة في الاختلاس أيضاً. وأخيراً، غلطتي الكبرى كما يبدو هو أنني تزوجت الرجل الذي سلبته... وهذا لا يبشّرني بمستقبل آمن... أليس كذلك؟».

فتصلّبت ملامحه الوسيمة: «إذا سمعت جواباً سخيفاً آخر منك سوف...».

قاطعته بمرارة: «سوف ماذا؟... تطلّقني؟ حسناً، أنا هنا أمامك... طلقني!».

وجم مكانه عند هذا التهديد، فسارع يقول مؤكداً: «انسي الموضوع. فهو ليس للبحث».

فقاطعته: «ويمكنك أن تحتفظ بأموالك القذرة أيضاً، وسأعتبر نفسي محظوظة لمجرد أن أتحرر من كابوس ارتباطي برجل لا يثق بي على الإطلاق!».

- أنت زوجتي ولا مهرب لك في هذه الحياة.

سمع رؤوف نفسه يجيبها بذلك وقد ازداد غضبه.

- أنا أفضّل أن أجرب حظي مع الشرطة... سأسلّم نفسي وأنتهي من هذا كلّه.

أعلنت ذلك رافعة رأسها تحدياً.

- لا تكوني حمقاء!

قال هذا وهو يغلي غضباً وقد نفد كل صبر له معها.

- أنا لم أضع اسمي في ذلك الحساب المصرفي.

ـ كفى كذباً. كان بريت بحاجة إلى اسمك في الحساب، لأنك مديرة «سفريات هاريس» وهذا يعني أنه يمكن أن يكذب ويقول إنه فتح ذلك الحساب بصفته موظفاً تبعاً لطلبك! وبصفتك مديرة، يمكن اعتبارك مسؤولة قانونياً عن اختفاء أموالي التي استثمرتها في الشركة.

كادت ركبتا ليلي تصطكان من الخوف فجلست على مقعد في الطرف الآخر. لم تكن تدرك أن مكافأتها من أبيها بتعيينها مديرة قد تعرضها إلى وضع كهذا. أدركت الآن، أخيراً، لماذا أخبرها بريت، بكل غرور، أن عليها أن تحميه. فمن المحتمل جداً أن يكون بريت قد وضع اسمها على الحساب مع اسمه للأسباب التي شرحها رؤوف لتوّه. ولا عجب في أنه هتف مبتهجاً حين أخبرته بأنها تزوجت من رؤوف ، كما أن بريت لا بدّ توقّع أن رؤوف لن يغامر برفع دعوى بالنسبة إلى أمواله المسروقة خشية أن يؤثر ذلك على سمعة زوجته. لكن ليلي لن تحتمل أن ينجو بريت غيلمان من العقاب الذي يستحقه.

وعادت بذهنها إلى الوراء متذكرة التعاسة التي حكم بريت بها عليها عندما كانت أصغر سناً وأكثر سذاجة من أن تعرف كيف تحاربه. وتنفست ببطء وعمق لتقوّي نفسها. كانت شديدة الشحوب لكنها شبكت يديها المرتجفتين وأخيراً رفعت رأسها عالياً:

ـ حسناً، من الأفضل أن أكون أنا المسؤولة وليس أختي التي لديها أولاد أو أبي الذي لديه مشاكل صحية.

قالت هذا بعزم هادىء.

ـ متى ستتوقفين عن هذا الكلام الفارغ؟

قال بإحباط إذ كان هذا الجدل مجرّداً من أي منطق بالنسبة إليه: «لن تكون هناك أي اجراءات قانونية بالنسبة إلى الأموال المفقودة. وذلك لسبب واضح وهو أنني غير مستعد لأن أدمغ زوجتي بكلمة (لصة)».

فقالت: «لكن هذا يعني أن يهرب بريت من دون عقاب، وأنا لا أريد ذلك. لقد سبّب لي ولأسرتي الكثير من الأسى، وأريده أن يدفع الثمن.

وإن كان هذا يعني أن أحتمل الشكوك التي ستتجه إليّ، لفترة. لكنني أشعر بكل تأكيد بأن الحقيقة ستظهر وأن إدانته ستثبت في المحكمة.

راح غضب رؤوف يتناقص أمام مثل هذا البيان الساذج المعذّب. وأخذ يتأمل ليلي، مقتنعاً بأنه، مرة أخرى، ورغم كل البراهين الواضحة، قد أخطأ في الاستنتاج. ويمكنه أن يشعر تقريباً كم طعن ليلي في كرامتها ومبادئها.

وفكّر رؤوف في وجود اسم ليلي في ذلك الحساب.

مع أنّ اسمها كان على الحساب، لكن ذلك لم يكن دليلاً كافياً. فما الذي يمنع بريت غيلمان من أن يأخذ شقراء أخرى إلى المصرف لفتح ذلك الحساب، مقدّماً بطاقة شخصية مسروقة من ليلي دون علمها؟ كما أنها لم توقع على الحساب وهذا يعني أن سحب الأموال قام به شخص واحد هو غيلمان.

راح يفكّر بكلّ تلك الأدلة الغبية الخرقاء التي قام بها بريت ليغطي آثاره ويلقي اللوم على غيره. وفجأة، أصبح واثقاً من أنه سيكتشف بعد مزيد من التحريّات أن إمضاء ليلي في فتح الحساب مزوّر. لقد تصرفت ليلي بغضب صادق، ولم تكن خائفة من التحدث إلى الشرطة. ثم ما من امرأة مذنبة عاقلة تسعى للدفاع عن نفسها والحصول على مساعدته بالشتم والتهديد بالطلاق.

ـ سنجتمع بالأسرة بعد أقل من ساعة.

قال هذا بصوت متردد، لأنه كان مشتت الذهن لاعتقاده بأنه، مرة أخرى، أساء الحكم عليها. لقد وقع مرة أخرى في هوة الشك. ولعن الغيرة التي أعمته عن الحكم الصحيح. أدرك أن عليه أن يُصلح ما أفسده، ولكن ذلك لم يكن من أفضل هواياته.

نظرت إليه ليلي فاغرة فاها: «يستحيل أن أقوم بذلك معك الآن...».

ـ لكنك أقنعتني بأنك بريئة من كل لوم. لم أكن مستعداً لذلك

الفاكس فتصرفت بشكل مبالغ فيه ويجب أن أعتذر لك. بعد التفكير ملياً أظن بأن بريت وضع مكيدة لاتهامك.

فقالت بتوتر: «من الواضح أنك لم تثق بي مطلقاً. شكوكك عني وعن بريت راسخة لا تتبدد أبداً.

ـ لكن كل شيء انكشف الآن وقد اقتنعت بأنه لم يحدث أي سوء في تعاملك مع بريت.

وأظلمت عينا رؤوف حتى أصبحتا داكنتين كالليل، ما كشف عن مدى توتر أعصابه، ذلك أنه لم يتعوّد ألا تصغي ليلي إلى ما يقوله، أو أن ترفض حججه في الدفاع عن نفسه.

ـ أنا الآن لا أهتم به مثقال ذرة.. كل ما يهمني هو أنا وأنت..

ـ ولكن لماذا تزوجتني رغم أنك لم تكن تثق بي؟ أنا أجد ذلك غريباً جداً ومهيناً للغاية.

كانت تقول ذلك والدموع قد بدأت تترقرق في عينيها: «أنت لم تهتم بي قط كما يفترض بك....».

ـ أنت مخطئة تماماً في هذا.

وازداد توتّر أعصابه وهو يرى ليلي في حالة نفسية لم يضطر إلى مواجهتها من قبل. وتقدم نحوها يحاول أن يمسك بيدها، لكن ليلي انكمشت وابتعدت عنه، مقاومة حتى لمسه.

ـ لا، أنا لست مخطئة. كل ما كنت تريده مني هو اللهو. وما أردته عند زواجك بي هو تحقيق مشيئة أسرتك... كيف استطعت أن تتزوج امرأة كانت عشيقة صهرها وسرقت منك أموالك؟.

كانت ليلي تدينه بكلمات تتدفق ملتهبة من فمها: «لا أظن شخصاً له مثل هذا التفكير هو شخص عاقل..».

ـ كما أنني لا أظن أن من يعبّر بهذه الطريقة هو شخص عاقل.

وتأوّه رؤوف وهو يهبط بجانب مقعدها باذلاً جهده لكي يظفر بنظرة منها: «كيف تظنين أن كل ما أريده منك هو اللهو؟ هذا شيء

فاحش...».

ـ وأنا أيضاً أظن ذلك، لكنني لا زلت أعتقد أن هذا فعلاً ما تريده.

تمتمت بذلك بأسف وعيناها تتعلقان أخيراً بعينيه الرائعتين الذهبيتين، وبالضوء المذهل الذي ابتدأ يتكوّن فيهما.

ـ وأنت أيضاً أكثر الرجال الذين عرفتهم تشككاً...

فقاطعها بسرعة، متلهفاً إلى توضيح إحدى النقاط التي أغفلتها: «أنا متشكك بالنسبة إلى موضوع واحد وهو ذلك الوغد بريت، وكل سوء تفاهم حصل بيننا كان له علاقة به بطريقة ما...».

ـ أنا حقاً لا أظن أن اتهامك زوجتك بأنها لصة.. هو سوء تفاهم.

ـ أنا نزق للغاية، وكثيراً ما أسيء فهم الأمور وأخطىء في الاستنتاج لا سيما بالنسبة إليك أنت.

وأخذ يلامس يديها، وعلى الفور ارتخت أصابعها فاحتضنها بشدة: «لكن ذلك فقط لأن أمرك يهمني جداً. أنا آسف، يا حبيبتي».

لكن قوله هذا لم يستطع أن يجعلها تغير اقتناعها، رغم التوتر النادر الذي بدا عليه. لقد أحبته دوماً ولهذا كانت دوماً تتغاضى عن عيوب علاقتهما. إنما الآن فقد سلبت الحقيقة القاسية سعادتها. وكانت صادقة في كل ما قالته له. بدا مصدوماً للغاية عندما قالت له إن اهتمامه بها كان مادياً لا يمتّ للحب بصلة.

ـ أنا واثقة أنّ بإمكانك أن توضح لأسرتك أنك أخطأت في الزواج مني بمثل هذه السرعة...

ـ سيبقون مصرين على إحضار غلطتي إلى البيت..

قاطعها رؤوف بسخرية عندما أعادها إلى كرسيّها وشدّ الحزام حولها بعد أن اقترب موعد هبوط الطائرة:

ـ في أسرة كازابيان، عندما يتزوج الشخص يبقى متزوجاً...

ـ وفي أسرة هاريس لدى النساء عادة سيئة وهي الزواج من الرجل غير المناسب...

ـ أنت تهينني بمقارنتي ببريت.

فقالت بفتور: «إذا انفصلنا الآن، ستكون مساعدتي للشرطة في التحقيق أقل إرباكاً لك».

ـ أنت لن تساعدي الشرطة في التحقيق!

قال هذا بحزم، وقد تصاعد توتره لمجرد ذكر أمر مماثل. ولكنه شعر في الوقت نفسه، أن مبادئه كلها تهوي. ألم يكن يعتقد أن على المرء أن يقول الحقيقة دوماً؟ لكنه أصبح الآن مقتنعاً بالعكس تماماً، بعد أن بدت ليلي في ذلك الفاكس مختلسة، وشريكة بريت في التآمر.

عند ذلك فقط، رأى رؤوف أنه سيفعل أي شيء لكي يحمي ليلي من أي سوء قد يصيبها. وإذا كانت حمايتها تعني الكذب ودفن الأدلة، فسيفعل ذلك دون تردد. لقد صعقته معرفته بهذا، ولكن كان عليه فقط أن ينظر إلى ليلي ويتصوّرها في زنزانة السجن لتسقط كل مبادئه الأخلاقية. ففي النهاية، الغاية تبرر الوسيلة.

عندما هبطت الطائرة كانت ليلي في ذهول بالغ لصعوبة القرارات التي اتخذتها. ومع ذلك، يجب أن يوقف بريت عند حده، وما حدث يكفي. ما هي الأمور الأخرى الفظيعة التي قد يفعلها بريت إذا بقي حراً؟ وهل عليها أن تمضي بقية حياتها في خوف دائم من هذا الرجل؟ ولماذا على رؤوف أن يخسر أمواله لأنه تزوجها؟ لن يكون ذلك منصفاً. ولن يكون من المنصف أيضاً أن يتحمّل هو وأسرته العار، لزواجه من امرأة مهددة بين لحظة وأخرى بدخول السجن بجرم احتيال. ورغم كل شيء، إذا كانت ستعتبر مسؤولة بصفتها مديرة «سفريات هاريس» عن اختفاء أموال رؤوف المستثمرة، فهذا أيضاً يعني أنها ستكون مسؤولة عن قضية الاحتيال بالنسبة للمنزلين... ألم يدرك رؤوف أنها ترى ذلك الآن؟

ارتجفت وتملكتها رعشة ذعر باردة. كيف يمكنها أن تلوم رؤوف لعدم ثقته بها عندما يلقي إليه ذلك الفاكس بذلك الدليل القاطع عن تورطها في قضية الأموال المفقودة تلك؟ كيف يمكنها أن تلومه، وهي التي لم

تخبره بعد بحقيقة علاقتها مع بريت؟ ربما كان رؤوف يحس دوماً بأنه لم يسمع الحقيقة الكاملة، وهذا هو السبب في عدم اقتناعه. ومع ذلك، ما الفائدة من أن تخبره الآن وهما يفترقان؟ لأن عليهما، طبعاً، أن يفترقا.

وإذا كان على بريت أن يمثل أمام القضاء وعلى رؤوف أن يحمي سمعته من الفضيحة، ليس هناك خيار آخر.

لذا عليها أن تسلّم نفسها قبل أن تأتي الشرطة للقبض عليها. أتراها هدّدت رؤوف بالطلاق فقط لأنها كانت غاضبة ومتألمة منه؟ الآن وقد حان وقت الحسم، تشعر بأن الحياة من دون رؤوف مجرّدة من كل معنى. لكنها، في الوقت نفسه، عندما أخذت تفكر في مدى كبرياء رؤوف واعتزازه بنفسه، ومدى ارتباطه بأسرته، فهمت ما هو شعوره الآن وهو يعرف أنه تزوج من امرأة قادرة على ارتكاب أعمال جنائية في المستقبل القريب.

قالت له بتعاسة وهما يجتازان المطار في اسطنبول:

ـ لا ألومك إن كنت تظنّني مذنبة، لأن لديك ما يبرر ذلك...

ـ لا، لا أهمية لذلك، وعليّ دوماً أن أثق بك...

ـ كيف يمكنك ذلك بينما أنا جئت من أسرة آوت بريت سنوات كثيرة؟ الأفضل أن نتطلّق، وعليك فقط ألاّ تذكر اسمي لأحد. وإذا كانت أسرتك منزعجة لأنك تزوجت من دون حضورهم، فليتكتّموا على زواجنا، وبذلك يُطمس كل شيء.

بحركة مفاجئة، أطبق رؤوف يده على يدها، كأن الطلاق أصبح وشيكاً إلى حد أراد معه أن يمنعه:

ـ لقد كدّرتك كثيراً، ولكن ما من سبب يجعلك تتحدثين عن الطلاق...

ـ لا أظنك ستبقى على رأيك إذا قبض عليّ...

ـ إذا كان هناك أقل احتمال لحصول ذلك، سأخرجك من البلاد.

قال هذا دون تردد، فأقلق هذا ليلي، لأن الأمر بدا وكأن هناك احتمالاً

لا بأس به بأن يتطور الوضع إلى هذا الحد، وكان هو يتابع:

ـ ولكنني لن أرفع دعوى على بريت لأجل المدفوعات التي لم أحصل عليها وبالتالي فإن ذلك لن يحدث...

ـ لكنك حتماً تريد أن تقاضيه...

فقال بعينين لامعتين: «أنت تهمّينني أكثر من الانتقام بكثير. كما أن راحة بالك هي في سلّم أولوياتي».

ودون وعي منها، بدت وكأنها لا تريده حتى أن يشعر بهذا القدر من الحنان نحوها، فتنهدت:

ـ طبعاً أنت لا تريد أن تكدر أسرتك بهذه السمعة الفظيعة التي ستسري بين الناس.

فدفعها رؤوف إلى داخل السيارة الليموزين المنتظرة، شاعراً بالإحباط.

ـ يمكنك أن تأخذني إلى مخفر الشرطة وسأنهي أنا كل شيء. ليس من العدل أن يبقى بريت حراً.

تمتمت بهذا وهو يجلس بجانبها فقال: «وليس من العدل أن تتحدث زوجتي عن الطلاق!».

قال هذا بجفاء، وعيناه البنيتان تلمعان وهو ينظر إلى وجهها المجفل، ويحيط خصرها النحيف بذراعه يشدّها إليه:

ـ ليس من المنطق أن تكوني بريئة، وتفكري في إخبار الشرطة بمثل هذه القصة البالغة التعقيد التي قد لا يفهمونها كما أفهمها أنا، والآن أقفلي الموضوع.

ابتعادها عنه جعلها ترتعش وكان سيل من الأفكار القلقة يجول في ذهنها: «ولكن...».

فقال مازحاً: «الزوجات التركيات لا يجادلن رجالهن. إسألي جدة أمي! يمكنك المناورة معي بألف طريقة مثل... لا بأس في هذا.. هذا مقبول تماماً، أو حتى أتوقع منك هذا، ولكن إياك أن تجادليني بشكل

صريح مباشر...

ـ لكنك تحب دوماً أن أجادلك...

ـ ليس في هذا الموضوع يا حبيبتي. خذيها مني... أنا خبير في هذا...

ـ ولكن عندما تعلم الشرطة أنني مديرة «سفريات هاريس»، ويقبض على بريت بسبب ما فعله بالنسبة إلى ذينك البيتين...

ـ أنت ليلي كازابيان. وأنت لم ترتكبي أي خطأ لذا ليس هناك ما تخشينه.

تمتم بهذا بهدنها بلهجة فعّالة بارعة، باذلاً جهده للنجاح معها بكل ما في شخصيته من قوة وعزيمة، وهو لا يرى سبباً لإقلاقها بحقيقة أن الشرطة أصبحوا يعرفون أنها مديرة الشركة:

ـ وبصفتك زوجتي، مكانك هو بجانبي. وإذا ظهرت أي مشكلة، يمكنك أن ترتاحي مطمئنة إلى أنني سأتحرك على الفور لأتعامل معهم بالنيابة عنك.

ـ أتمنى لو أن الحياة كلها بهذا الشكل.

تمتمت ليلي بذلك ضاحكة على الرغم من قلقها، لأنه كان حقاً يعتقد بأن ما من شيء لا يمكنه معالجته.

ـ الحياة معي ستبقى دائماً بهذا الشكل. أعدك بذلك.

قال هذا وعيناه تستقران على فمها الحلو الممتلىء. ثم أجفل، مكافحاً رغبة تدفعه إلى معانقتها بكل المشاعر المكبوتة التي أثارها في نفسه احتمال فقدانه لها، فليلي هي آخر ما يريد أن يخاطر به. وهذه الليلة، عندما يذهبان إلى شقته على ضفاف النهر، سيحتضنها فقط ويكون رومنسياً معها... تماماً كما تريد.

مالت ليلي إلى الأمام بطريقة مغرية. كان قلبها يخفق بعنف. لكن رؤوف أبعدها عنه وقد بدا عليه الإنشغال. وإذ شعرت بإحراج بالغ لخيبة أملها، عادت تجلس في الزاوية البعيدة، محاولة أن تركز اهتمامها على

شوارع اسطنبول المزدحمة الغريبة الطراز. هل سيكون كل شيء على ما يرام كما وعدها؟ وهل عليها أن تصغي إليه؟ إذن فلا فائدة من مناكدة نفسها بأنها تريد الطلاق.

أمّا رؤوف فكان منشغلاً في تحليل أفكاره ومشاعره وهو بالقرب من ليلي. كان يودّ لو يقول لها إنه مهووس بها، لكنها لا بد أصبحت تدرك ذلك بنفسها الآن. عندما يتزوج رجل امرأة خلال أربعة أيام، فهذا لا يدل على حنكة هادئة أو تحكّم، خصوصاً عندما يكون ذلك الشخص قد أمضى حياته كلها رافضاً فكرة الزواج.. لقد أظهر لها حبّاً جمّاً فلماذا تتهمه بقلة اهتمامه ورومنسيته؟

وفجأة بدأت هذه الفكرة تلوح في أفق حياته كأنها سحابة سوداء كبيرة.

كانت ليلي متوجسة بالنسبة إلى مقابلتها لأسرته، فتقدمته داخل منزل بالغ الفخامة والاتساع، تعيش فيه ثلاثة أجيال من آل كازانيان.

ـ أراهنك بكل شيء بأنهم لا يحبونني...

ـ «نور الصباح» أحبتك من النظرة الأولى، وأبي سيكون شاكراً جداً لأنه لن يضطر مجدداً للاستماع إلى مناحة من النساء الثلاث لأنني جلبت العار على الأسرة ليقاني عازباً.

منذ اللحظة التي فتحت فيها الخادمة باب قاعة الاستقبال الفسيحة الرائعة، إذا بوالدة رؤوف، سيرين، وهي سمراء صغيرة الجسم في الخمسينات من عمرها، تظهر وتحييهما بالإنكليزية. ولم يكن لدى ليلي الوقت لتشعر بتوتر الأعصاب، وابتسم أبوه لها، وكان طويلاً وبدا نسخة أكبر سناً عن رؤوف. أما جدته مانوليا، فقد كانت أهدأ النساء الثلاث. «نور الصباح» تشبثت بيد ليلي بأصابعها الهشة وأخذت تنظر إليها والدموع تلمع في عينيها المتألقتين، ثم أومأت راضية.

تمتم الأب إرسين يقول لابنه بينما كانت النساء يثرثرن: «أنا وأنت علينا أن نسافر إلى لندن غداً».

فأجاب رؤوف: «كرر ما قلته».

ـ على هذا العرس أن يكون عرساً تقليدياً ولهذا علينا أن نطلب يد ليلي من أبيها إن كان يقبلك صهراً.

ـ لقد أصبحت صهره الآن شاء ذلك أم أبى.

قال رؤوف هذا وقد التهبت مشاعره لاحتمال افتراقه عن ليلي ولو يوماً واحداً. لكنه بعد تفكير قليل أقرّ بأنه ما كان ليحلم بالزواج من فتاة من بلده دون الذهاب أولاً إلى أسرتها: «نعم، أنت محق. ذلك ما يجب أن يحصل...».

ـ عندما تذهب إلى بيتك هذه الليلة وحدك، ستكتشف أشقى حقائق الحياة. لا يمكن أن يقاوم أحد «نور الصباح». وهي ستتكدر إذا أنت جادلتها، وتذهل وتضطرب إذا أنت رفضت توقعاتها، فكيف يمكنك أن تخاطر بهذا الشكل؟

وقطب رؤوف جبينه: «وحدي.. ما الذي تتحدث عنه؟ وزوجتي؟

ـ لا يمكنك أن تأخذ ليلي إلى بيتك، وقد فهمت أنك وافقت على ذلك الترتيب عندما تكلمنا معك هاتفياً الليلة الماضية...

ـ رؤوف...

عبر القاعة، كانت جدة أمه تمدّ له يدها لتحييه.

عليه أن يذهب إلى بيته وحده من دون زوجته؟ هل هم مجانين ليطلبوا منه مثل هذا الأمر؟

ـ ستبقى ليلي معنا هنا وكأننا أسرتها، حتى نحتفل بالعرس. وبهذه الطريقة نتجنب الأقاويل.

قالت السيدة العجوز ذلك بسعادة، فصبغ وجنتي رؤوف لون خفيف. انقبضت يداه، وواجه نظرة أمه الضارعة، فزم شفتيه بغضب بالغ لفكرة افتراقه عن ليلي. حتى أنه بقي لحظة، لا يستطيع الكلام.

وقالت جدته مانوليا بطريقتها المعتادة في التهدئة: «يمكنك أن تزور ليلي ساعة تشاء».

ـ لكن رؤوف لن يستطيع أن يجلس وحده معها... وإلا سيقول الناس إننا متحررون أكثر من اللازم.

هكذا حذرّتهم «نور الصباح». فقال رؤوف بجفاء: «لكن ليلي زوجتي».

ـ ستحظى بها طيلة حياتك.. ولكن هذه فترة زيارات الخطوبة والتودّد والعرس.

أخذت «نور الصباح» تتحدث وكأن كل التواريخ محددة ولا يمكن تعديلها. وتجاهلت إشارته إلى زواجه السابق.

ـ أنت لا تريد أن يقول الناس إنك تخجل بعروسك بحيث لم تتبع التقاليد والعرف.

تنهد رؤوف منزعجاً: «التقاليد التي كانت سائدة منذ سبعين عاماً..».

ـ تقصد الأربعين يوماً والأربعين ليلة؟

قالت جدة أمه هذا فشحب وجهه ثم تابعت:

ـ لكننا لا نعيش في قرية، وعلى الرغم من أنني أرى أعراض هذه الأيام تفتقر إلى الاحترام، أظنّ أن أسبوعاً يجب أن يكفي.

ارتاح رؤوف من تهديد أربعين يوماً وليلة، إلا أنه ابتلع ريقه بصعوبة. أسبوع.. سبعة أيام من دون ليلي. وتملكه الذعر، لكنه نظر إلى المرأة العجوز، والعينين الراجيتين، فأدرك أنه جلب هذا الوضع لنفسه، وأنه لا يستطيع أن يؤذيها أكثر مما آذاها برفضه الجاف. هز رأسه بإقرار عابس وموافقة، فتلاشى توتر أفراد الأسرة.

تمتم بفتور: «يجب أن أشرح هذا لليلي... على انفراد».

ـ دع الباب مفتوحاً...

قالت «نور الصباح» هذا بعد أن قطّبت جبينها لهذا الطلب.

استمعت ليلي لهذا الحديث من دون أن تفهم كلمة واحدة. وكانت والدة رؤوف تشغلها بحديثها طوال الوقت بينما تراقب رؤوف بتوتر

واضح. ولكن بدا لها أن الجميع سعيد باستثناء رؤوف، فقد بدت ملامحه القوية شاردة متوترة.

مدّ يده إلى ليلي بدعوة صامتة، ثم أخذها إلى غرفة جانبية. وسألته بسرعة: «ما الخطب؟».

تمتم شيئاً بالتركية بصوت خافت، ثم سار إلى الغرفة ذات النوافذ المستطيلة، وكتفاه تنمان عن توتر وسخط بالغين.

ـ كنت أتلقى قصاصاً من محترفة تعذيب في الثانية والتسعين من عمرها.

ـ عفواً؟ لم أفهم.

زفر رؤوف وقال: «الليلة الماضية سمعتك تتحدثين مع بريت...».

ـ أنت... سمعتني!

هتفت ليلي محاولة أن تتذكر ما قالته، وقد فهمت أخيراً أن شيئاً آخر، لسوء الحظ، ساهم على الأرجح في عدم ثقته بها، إزاء اكتشافه أن اسمها على بيان الحساب المصرفي الذي فتحه الرجل الآخر.

ـ وبينما كنت أفكر في ذلك الأمر... اتصلت بي سيدات الأسرة المتسلطات، وربما... لا أتذكر في الحقيقة، ربما فهمت من نور الصباح أن عليّ أن أقيم عرساً آخر وفقاً للتقاليد، لكي أهدىء من المشاعر المجروحة. إنها ترفض الاعتراف بزواجنا المدني، وهذا يعني أنها تتوقع منا أن نتصرف وكأننا ما زلنا عازبين.

قطبت ليلي بارتباك، بينما تابع قائلاً: «ما يعني أنك ستبقين هنا تحت هذا السقف من دوني حتى نتزوج للمرة الثانية».

قال هذا وهو يصرف بأسنانه.

فشهقت: «آه... ولكن هذا سيكون بعد تسعة أيام...».

ـ بل أسبوع...

ـ لا. كانت أمك واضحة جداً بالنسبة إلى التاريخ.

ـ «نور الصباح» تتصرف وكأن زواجنا المدني أشبه بقرار امرأة مع

عشيقها...

- لا أظن ذلك، فقد رحّبت بي جداً وأنا أكره أن أؤلمها.

ثم أخبرها رؤوف أنه سيسافر إلى وطنها غداً لزيارة أسرتها.

- آه، لا... هيلاري تكرهك.

هتفت ليلي بذلك مذعورة، ورآها تضع يدها بارتباك على فمها عندما انتبهت إلى زلة لسانها، فذهل لما قالته وعيناه تتألقان فأضافت عابسة بأسى:

- هذا بسبب الطريقة التي هجرتني بها منذ ثلاث سنوات.

كل غلطة اقترفها بحقّها عادت الآن لتعذبه.

وقالت له فجأة بقلق: «ماذا عن المنزلين وكل ذلك؟ لا بد أن يعلم أبي وأختي بشأنها».

- نعم، سأهتم بذلك...

- ينبغي أن أتصل بها...

- نعم، ولكن أخبري أختك فقط بأننا تزوجنا...

- ولكن...

- أنا سأتولى المسائل السيئة. أنا من الأسرة الآن.

كان وجهه رائعاً، وهو يمسك يديها ويشدّها إليه: «عندما أعود سآخذك في تلك الجولة السياحية التي كان يفترض بك القيام بها من أجل أختك. فقد جئت إلى هنا لأجل ذلك».

لاحت ابتسامة راضية كسول على فم رؤوف الجميل، بعد أن أطلعها على ما يجدر القيام به بهدف التأثير على جدة أمه، التي لن تحتمل أن تفكر بأن ليلي تسافر في الأنحاء وحدها، أو تفشل في التزاماتها الأسرية.

- سأفتقدك.

قالت هذا بصوت متوتّر، فكبح آهة: «سأعود بعد يومين... لكن هذه تبدو لي فجأة فترة بعيدة جداً».

طوقت عنقه بذراعيها تحتضن جسمه الجبار، لكنه سمع سعالاً في

قاعة الاستقبال ينبهه فرفع رأسه بسرعة وعيناه تلتهبان.

- ما أبطأ عرسنا الثاني، يا حبيبتي.

انشغلت ليلي كثيراً خلال الساعات الأربع والعشرين التالية.

عندما اتصلت بأختها، ذُهلت هذه لدى معرفتها أن ليلي تزوّجت رؤوف. لكنها عندما علمت أنه سيكون هناك عرس ثانٍ، هدأت: «سنأتي طبعاً لنحضره».

وأضافت مازحة: «وطبعاً سيرسل رؤوف طائرته الخاصة لتحضرنا، وبذلك نوفر ثمن التذاكر. ومقابل ذلك، أتوقّف أنا عن لومه وأحاول أن أحبه».

انسجمت ليلي مع أقارب رؤوف تماماً. وأشعرها عطفهم وحنانهم بالدفء والراحة البالغين. وقد أقيمت حفلة شاي كبرى عصر ذلك اليوم، دُعي إليها كل معارف أسرة كازابيان من النساء. وكانت ليلي محط الإعجاب والفضول. وعندما تعبت «نور الصباح» رافقتها ليلي إلى غرفة أخرى حيث استلقت على أريكة لكي تستريح فترة.

عندما عادت ليلي إلى الحفلة، اعترضتها فتاة سمراء رائعة الجمال ترتدي طقماً بديعاً أبيض اللون، وقدمت نفسها إليها:

- أنا قسمت. وقد عرفت رؤوف منذ صغري...

فابتسمت ليلي.

- لكنني دهشت جداً عندما علمت أنه سيتزوج لأنه ما زال يحبني.

ولمعت عيناها ازدراء.

طرفت ليلي عينيها بذهول: «المعذرة؟ لم أفهم».

- طبعاً رؤوف لن يعترف بذلك، حتى ولو عدنا فترة إلى بعضنا في بداية هذه السنة. إنه عنيد جداً ومتكبر.

قالت لها المرأة هذا متوتّرة: «لكنني أريدك أن تعرفي ذلك. أريدك أن تعلمي أنه يفضلني عليك. لقد أحبني عندما كنا مراهقين ولم ينسني قط».

اتسعت عينا ليلي الزرقاوان ذهولاً، وقالت لها بصوت مرتفع أول ما

خطر ببالها دون أن تعني ذلك:

ـ لا بد أنك الفتاة التي فاجأها مع صديق له؟

توهج وجه قسمت احمراراً.

ـ آسفة... لم أكن أقصد أن أقول هذا.

قالت ليلي ذلك وقد هزها حقد المرأة الأخرى، وكذلك ارتبكت لجوابها السريع. صدرت عن قسمت ضحكة شريرة....

ـ كنت حمقاء حينذاك.. أنا لم أحب زوجي الراحل، لكنني تزوجته بعد أن فقدت رؤوف. أيمكنك حقاً أن تتصوري أنني كنت سأفضل أي رجل آخر على رؤوف؟

بعد ذلك الاعتراف القصير، لم تشأ ليلي أن تستمع إلى المزيد، فتمتمت: «عن إذنك...».

استمرت الحفلة ولكن بعد ذلك اللقاء أخذت ليلي تبدي التحدي وتمثل دور العروس السعيدة.

كان ذهنها مضطرباً. أدركت أن قسمت مستاءة وجلّ ما كانت تريده هو أن تسبّب لها الانزعاج والألم، فهي لم تكن حمقاء. لكن الحقيقة، هي أن ليلي أيضاً تعرف رؤوف والناحية المظلمة من شخصيته.

لا... حتى ولو كان يتوقع أن يستمر في حب قسمت إلى آخر حياته، فهو لن يغفر لها خيانتها. ولهذا السبب، تأكيد قسمت لها بأن العلاقة بينها وبين رؤوف مستمرّة قد كدّرها أكثر من كل شيء آخر. لماذا يعود رؤوف إلى امرأة خائنة؟ الجواب الوحيد على هذا السؤال هو أن رؤوف ما زال يكنّ لتلك المرأة مشاعر قوية.

ولأول مرة، يخطر في بال ليلي أنه ربما هناك سبب وجيه يجعل رؤوف يصف علاقته بها على أنها (اهتمام).. وليس حباً، طالما أنه يحب امرأة أخرى، امرأة لن يتزوجها أبداً. ورغم أنه أنشأ علاقة مع قسمت، إلا أنه عاد فقطعها. لقد وقع تحت الإغراء ثم عاد فقاومه مرة أخرى... إنه في حرب مع نفسه منذ البداية. وهبط قلبها. لقد تحايلت، بشكل ما،

لتتقبل أن رؤوف لا يحبها، لكن التشكك في أنه يحب امرأة أخرى أكثر مما يحبها، دمّرها كلياً.

بعد أن أنهى رؤوف مناوراته الناجحة في إنكلترا، توقف فترة في باريس لشراء ما رآه ضرورياً قبل أن يعود إلى الوطن. أخذ ينظر إلى الخدم وهم يجاهدون في حمل الصندوق الضخم المزخرف على درجات بيت أسرته. ستدهش ليلي وتبتهج وهي تراه يعمل للمناسبة بحيوية فائقة. بعد ثمانية أيام وأربع عشرة ساعة وسبع وثلاثين دقيقة، تكون ليلي قد عادت إلى مكانها بجانبه في بيته. ريثما يحل الموعد المنتظر، سيستغل الوقت ليظهر أنه رومنسي حنون، كريم، صبور، شهم، ومتسامح.

دخل إلى المنزل فتملكه الارتياح عندما رأى ليلي وحدها.

وهتف راضياً بصوت خافت: «ليلي...».

ـ رؤوف...

وأخذت عيناها المظللتان تتأملانه للحظة مؤلمة، وأخيراً استطاعت أن تمنحه ابتسامة بنقصها التألق.

بدا رؤوف، في بذلته الرمادية رائعاً، يخطف الأنفاس. وها هوذا يقف متكاسلاً، مليئاً بالرجولة، وعلى وجهه ابتسامة خفيفة، قادرة أن تذيب عظامها فتحيلها ماءً. ولكن ليلي أشاحت بوجهها عنه من باب الدفاع عن النفس، وتمنّت لو أن لخفقات قلبها المتسارعة نفس الكرامة التي تحاول الظهور بها.

سألها: «هل افتقدتني؟».

ـ كنا مشغولين جداً هنا...

وزمّت فمها الناعم. ذلك أن رؤوف غاب يومين بينما أبوه عاد إلى تركيا بعد أربع وعشرين ساعة فقط. ومن ناحية أخرى، كانت تفكّر في ما قالته لها تلك السمراء عن علاقتها برؤوف، وبالتالي لم تظنّه مستعجلاً للعودة إليها..

آلمها هذا، ولكن هل من الإنصاف منها أن تحكم عليه؟ ومع ذلك،

من هو الذي كان يأرق الليل متقلباً دون نوم بسبب التفكير فيه؟ أخذت ليلي تذكر نفسها شاعرة بالذنب وهي تتذكّر عمق شوقها له.

وفي تلك اللحظة، صرف ذهنها عمّا تفكر فيه دخول صندوق خشبي ضخم مزخرف، يترنّح بين أيدي حامليه.

ـ هذه هديتي الأولى لك.

وقاوم دافعاً لأن يسألها إن كانت بخير، مذكّراً نفسه بأن ما سبق أن أظهره من نقص ثقته بها قلل من تفكيرها به دون شك. ثم فتح الصندوق وأخرج منه علبة كبيرة. فسألته بضعف: «ما هذا؟».

ـ قماش لثوب عرسك... العريس، حسب التقاليد، هو الذي يشتريه.

ـ ظننتك لا تنقيد بها...

رفعت غطاء العلبة مصمّمة ألاّ تظهر إعجابها، فبدا قماش رائع من الحرير الأبيض المطرز بالذهب: «آه، يبدو من دنيا الخيال!».

ـ لا تدعيني أراه...

نبّهها إلى ذلك حين أوشكت، لفرط حماستها، أن تلقي جانباً بالغطاء.

ـ ظننتك اخترته بنفسك.

فنظر إليها مرتبكاً بشكل هفا له قلبها رغم محاولتها البالغة مقاومة ذلك.

ـ لا تذكري ذلك لسكان البيت المتشبثين بالتقاليد، لكنّني أردته أن يكون مفاجأة عندما أراك في ثوب عرسك.. فقط سجّلت ما ظننته قد لا يعجبك، ثم تركت الاختيار للمصمّمة، وهي ستأتي بالطائرة هذا المساء لكي تقيس لك الثوب.

أعادت ليلي الغطاء على العلبة ثم أخذت تتأمله بعينين حالمتين، بعد أن وجدت ذلك الاعتراف حلواً للغاية. عبثاً تحاول، فهي لن تستطيع أن تكون باردة نحوه بينما هي تحبّه حتى الموت.

لا بد أن لديه شيئاً من الحنين إلى رشاقة وحنكة قسمت، لكنها لا تفكّر في إجراء تحقيق معه عن هذا الموضوع. طبعاً، كان لرؤوف أكثر من علاقة هامّة في ماضيه، فإذا حاولت أن تتطفّل على ذلك الماضي سيستاء منها، فما الذي ستستفيده؟ سيخبرها بالحقيقة إذا هي سألته، لكن الحقيقة تجرح أحياناً، كما اعترفت بذلك بأسى.

ـ لقد اخترت كل ما في الصندوق.

ـ كل شيء..؟

ونهضت تنظر في الصندوق بحيرة، كان مليئاً بالملابس.

ـ هذا جهازك.. لكنني أرسلت الملابس الداخلية إلى غرفتك. لم أشأ أن أحرجك...

قال هذا بشيء من التسلية...

ـ هل اشتريت لي ملابس داخلية..؟

ـ ويا لها من تجربة رائعة، يا حبيبتي.

صوته الخائف الملتهب جعل حلقها يجف ووجها يتوهّج.

وقُعُ عصا جدّة أمه على الأرض أنذرهما بقدومها. وتملكت «نور الصباح» البهجة لرؤية ذلك الصندوق الضخم.

تمتم بنعومة محاولاً أن يغطي الثرثرة التي قوطعت بينهما: «وطبعاً كنت مخدوعاً هنا».

ـ كيف؟

ـ كان يُفترض بك أن تحضّري جهاز عرسك بنفسك وتخيطيه بجدّ ونشاط، وتجمعيه منذ الطفولة.

ـ أظنك مع الأسف، وقعت على عروس كسول.

كانت متلهّفة إلى أن تسأله كيف كان لفاؤه بأخته، لكنّها لم تشأ القيام بذلك على مسمع الآخرين.

وبعد ذلك بنصف ساعة، أخذ رؤوف ليلي في سيارته ليريها قصر «توبكابي» الفخم، مقر إقامة سلاطين آل عثمان الأوائل منذ أكثر من

أربعمائة سنة في «سيراغليو».

ـ والآن، ماذا حدث مع أختي ولماذا لم تتصل هيلاري بي هاتفياً؟

ـ قالت إنها تفضل أن تتحدث إليك وجهاً لوجه عندما تأتي لحضور العرس...

ـ لا تخف شيئاً عني... هل استاءت كثيراً بسبب المنزلين؟

ـ تفاجأت وغضبت للغاية، لكن والدك وافق على دخولي شريكاً في «سفريات هاريس». هيلاري رفضت مبدئياً لكن بإمكاني أن أقنعها.

ـ نعم، أعرف هذا...

أخذت تتأمل وجهه البرونزي، ولاحظت لمحة من الرضى الهادىء في لهجته، فابتسمت.

ـ أنت شهم إلى حدّ لا يُصدّق...

ـ لقد عانت أسرتك كثيراً، وأنا أريد أن أساعد...

ـ هل تحصل دوماً على ما تريده؟

ـ أنت كنت واحدة من إخفاقاتي النادرة.

ـ وقِسمت؟

خرج اسم تلك المرأة من فمها قبل أن تستطيع منعه.

عند ضوء إشارة السير، التفت رؤوف إليها مقطّباً، وسألها بنظرة ثاقبة: «أين قابلتها؟».

احمرّ وجه ليلي: «كانت في حفلة الشاي التي أقامتها أمّك...».

فقال عابساً: «ما زال أبي يعمل مع أبيها، لكنني مندهش لجرأتها على الحضور. لا أحد منّا يحبّها...».

ـ حسب قولها، أنت ما زلت مجنوناً بحبها.

فنظر إليها ذاهلاً وسألها غير مصدق: «بعد إحدى عشرة سنة من رؤيتي لها مع شخص آخر؟».

فقالت بتسلية: «أفهم من هذا أنك لم تخرج معها مؤخراً».

أخذت أبواق السيارات تزعق خلفهما، عندما حدّق رؤوف فيها ذاهلاً ثم انفجر غاضباً:

ـ هل أنت مجنونة؟ هل أخبرتك هي بذلك؟ حسناً... سأذهب إلى بيتها لأوقفها عند حدها الآن...

قال هذا وهو يصرف بأسنانه، ويتجه بسيارته الرياضية الفارهة في الاتجاه الذي أتى منه.

وهتفت بذعر: «لا، لا، أرجوك، لا تفعل ذلك!».

ـ إذا كانت تريد أن تكذب، عليها أن تدفع الثمن.

ـ لا أريدها أن تظنّ...

ـ أنك صدّقتها؟ أنت زوجتي، وأنا لا أريد أن تتشوّه سمعتي، ولن أسمح لأي كان بأن يكدّرك...

ـ سأتكدر أكثر بكثير إذا أثرت ضجة بسبب ذلك. كنت أتساءل فقط، وهذا كل شيء... لكنّني الآن أعلم أن قسمت امرأة حاقدة وتريد أن تغيظني...

ـ بعد أن أتكلم معها، لن تحاول أن تطلق العنان لحقدها هذا مجدداً.

أقسم رؤوف بذلك من دون أن يتأثر بمحاولتها لتهدئته.

لم تشعر ليلي بالارتياح قطّ من قبل، كما شعرت الآن بعد أن قرع رؤوف جرس باب منزل قسمت ولم يفتح أحد، فعاد إلى سيارته وما زالت ملامحه الرائعة عابسة مصمّمة بغضب.

قالت تهدئه: «أتشوّق لمشاهدة قصر «تويكابي»».

نظر إليها وعيناه الجميلتان تلمعان كالذهب، ثم مال عليها وداعب شعرها الأشقر الحريري بشعور عميق بالتملك فسرت في جسدها نار حارقة، ومالت برأسها إلى الخلف وقلبها يخفق بقوة.

ابتعد عنها وهو يأخذ نفساً عميقاً: «كما ترين... أنا أفقد صوابي معك حتى إنني لا أستطيع أن أبتعد عنك في الأمكنة العامة».

ـ دعنا إذن نذهب إلى مكان منفرد.

سمعت نفسها تقول ذلك من دون وعي منها.

ـ لا... لا أفعل ذلك خفية.

قال هذا وهو يستدير بالسيارة دون أن ينظر إليها.

فاحمرّ وجه ليلي: «نحن متزوّجان».

ـ أمامنا العمر بطوله.

قال هذا بحدّة وهو يقاوم الإغراء بكل قوّته. بعد ساعة من ذلك، وقفا في ظل سقيفة الحديقة في فناء القصر، وراحت ليلي تتأمل منظر البحر الرائع، لكن أفكارها كانت بعيدة تماماً. كانت تفكر في السرعة التي أجاب فيها رؤوف على سؤالها عن قسمت، وقارنت صدقه معها مع إخفائها عنه الحقيقة بالنسبة إلى بريت. برّرت نفسها بأنها ليست بحاجة إلى أن تخبر رؤوف بالحقيقة السيئة عن سلوك بريت معها. ولكن بإخباره نصف الحقيقة فقط، لم تكن منصفة لا نحو نفسها ولا نحو رؤوف.

أخذت نفساً بطيئاً تقوّي به نفسها، ثم قالت له فجأة: «هناك شيء أريد أن أخبرك به... أريدك أن تفهم لماذا كنت دوماً أخاف من بريت... لا، أرجوك، لا تقاطعني».

تحرّك نحوها فجأة بقلق ظاهر، مقطباً جبينه وعيناه الذهبيتان تتفحصان وجهها الشاحب المتوتر.

وفي ذلك الصمت المتوتر، قالت بصوت ثقيل: «لا أظن ذلك الخوف منطقياً، لكن المشكلة هي أنه راح يخيفني عندما كنت أصغر من أن أعرف كيف أتصرف مع رجل مستبدّ مثله. في أول مرّة رأيت فيها بريت مع امرأة أخرى وأخبرت أبي بذلك، أدرك بريت أنني أنا من رآه. أحضرني من المدرسة، وتصرّف معي كرجل مجنون رغبة منه في إخافتي. صرخ بي وهددني وقال إنني إذا تحدثت عنه مرة أخرى، سيخبر هيلاري بأنني كنت... أنت تعلم... أحاول اغواءه...».

وعندما بدا الذعر والاشمئزاز في عينيها لهذه الذكرى، أخذ رؤوف يشتم بلغته وأمسك بيديها المشتبكتين بين يديه، وقد تجمّد جسمه الجبار

وشحب وجهه، نتيجة الغضب والصدمة العميقة اللذين تملّكاه.

ـ حتى حالياً، لا أدري إذا كانت هيلاري ستصدّقني لأنها كانت مجنونة ببريت. كانت تراه وسيماً للغاية وتتحدث دوماً عن تهافت النساء عليه. وهكذا بقيت صامتة، ولكن ذلك لم يكن كافياً في نظر بريت. كان يكرهني ويريدني أن أكون دوماً مرتبكة وخائفة. وقد بقي يعذّبني طوال ثلاث سنوات إلى أن ذهبت إلى الكلية.

ـ كيف كان يعذّبك؟

صدر عن رؤوف هذا السؤال كالرصاصة، وهو يضغط على يديها.

ـ عندما لا يكون في المنزل أحد سوانا، كان يقول لي تعليقات تبعث على الغثيان...

وعبست، وأخذت تقوّي نفسها لتتابع: «عن تطور جسمي... ثم يخبرني بنكات قذرة... لم يلمسني قط، لكنني كنت خائفة جداً من أن يفعل ذلك... يوماً ما».

احتضنها رؤوف بشدة وهو يهتز غضباً. كان يعلم أنه إذا رأى بريت، سيقتله، وأخذ نفساً عميقاً يهدىء به نفسه. كم كان أحمق أعمى عندما لم يحلل ما كان يعرفه ويستنتج شيئاً أكثر احتمالاً من أن تكون ليلي عشيقة صهرها! والآن، لقد عرف ما كان محاسبه السابق، ينبهه إليه... فقد رأى الرجل العجوز خوف ليلي من صهرها.

ـ لم أخبر أبي بأن بريت يهدّدني بأنه سيقول إنّني أحاول إغواءه. كيف يمكنني أن أثبت أنه كان يكذب، بينما الحقيقة كانت تدمير زواج هيلاري؟ من كان ليصدّقني؟ لم أستطع أن أواجه الوضع...

ـ طبعاً.. كان عليك أن تخبريني عن كل هذا منذ ثلاث سنوات.

وتنهّد بغضب بالغ، فقالت بحدّة: «كنت خائفة من أن تظن بأنني أشجّعه. وعلى كل حال كنت قد تعودّت على الاحتفاظ بكل هذا سراً حينذاك. وبسبب بريت تعوّدت أن أرتدي ملابسي بهذا الشكل المتحفّظ محاولة ألا أجتذب انتباهه. ولم أعرف مدى اختلافي عن الفتيات

الأخريات إلا بعد ذهابي إلى الكلية. كنت متوتّرة دوماً من الفتيان.. لم أكن أحب حتى أن أجتذب أنظارهم، لأن ذلك يذكرني ببريت، وبالتالي يجعلني أشعر بالقذارة.

ـ اهدأي... لا عليك...

تمتم بذلك بصوت رقيق وقد هاجمه مزيج من الشعور بالذنب والندم العنيف لعجزه عن التفهم.

ـ لكنني أحببتك، وهكذا حاولت معك أن أكون طبيعية...

وبعدك... نعم. بعدك بوقت طويل ذهبت لاستشارة طبيب نفسي لأنني أدركت أن مشاعري تلك لم تكن طبيعية.

بقيت ليلي في ذراعي رؤوف فترة طويلة. وعندما شعرا أن هناك من سيزعجهما، أخذها إلى مطعم. وحول مائدة هادئة على شرفة مطلّة، سألها عن جلسات التحليل النفسي التي خضعت لها. فقالت مكشّرة:

ـ بعد أن أدركت أنني كنت أدع بريت يحطم حياتي، ابتدأ شفائي. كل ذلك الكتمان في أسرتي ومشاعر العجز والضعف التي اعتدتها أثناء وجوده... جعلني بذلك الشكل. لقد جعلت بريت يحولني إلى ضحية....

شدّ رؤوف على يدها بقوّة وقد أصبحت عيناه قاتمتين وقال:

ـ أنا لم أساعدك.. طوال الوقت كنت أحس بتحفّظك معي، وقد ضايقني ذلك وجعلني أنسب تصرفاتك إلى دوافع أخرى. لكنني لم أفعل شيئاً لأجعلك تثقين بي، يا حبيبتي.

ابتلعت ريقها بصعوبة. وشعرت بالسرور لكشف كل الأسرار بينهما الآن، كما أنه لم يشكّ في كلامها. لا، لم يشك في كلامها لحظة واحدة. وملأها ارتياح بالغ، كما عاد اللون الطبيعي يدفىء وجنتيها، وزال توترها.

الأيام التي تلت كانت تعج بالحركة مع اقتراب العرس. بعد أن أراها رؤوف المعالم الرئيسية في اسطنبول، راح يأخذها إلى الأماكن البعيدة من المدينة. تفحصت ملابسها الجديدة، فاكتشفت أن ما أحضره لها رؤوف

كان روعة في التصميم والحداثة، إلا أن أياً منها لم يكن مكشوفاً أو جريئاً. ومازحته قائلة إن جده أمه أعجبت بمعظم الأثواب هي أيضاً.

في منتصف الأسبوع، أحضر رؤوف إليها البرهان على أن بريت حاول أن يورّطها في الحساب المصرفي الزائف الذي فتحه في ذلك المصرف التركي في لندن. وكان قد حصل على نسخة من إمضائها المزعوم، لكن الخطّ لم يكن يشبه خطها بأي شكل من الأشكال.

قال رؤوف راضياً: «إنه تزوير رديء لا يخدع أحداً. بريت غيلمان يعتبر نفسه ماهراً للغاية، لكنه سقط في كل التفاصيل الدقيقة».

فسألته بقلق: «نعم، ولكن ماذا سيحدث له؟».

ـ لا أريد أن تفكري فيه مطلقاً.

بدت العزيمة في ملامحه واستقرت عيناه باهتمام على ملامحها المنزعجة:

ـ ثقي بي! سينصرّفون معه، ولن يتمكن أبداً من التعرض لك أو لأي فرد من أفراد أسرتك.

في نهاية ذلك الأسبوع، كان في جعبة ليلي مجموعة كاملة من الذكريات السعيدة والانطباعات الجميلة عن الحضارة التركية الغنية.

زيارتها إلى «سوق البهارات» في اسطنبول، حيث تمتزج روائح لا تعدّ ولا تحصى وتعبق في الجوّ، كانت ممتعة للغاية. لكن سيرها مع رؤوف بدأ بيد بعث في نفسها بهجة مميزة. وسحر التجوال حول أطلال مدينة «إفسس» القديمة، ازداد عندما أبدى رؤوف استعداده للإجابة على كل سؤال. وأبدى زهوه المؤثّر وحبّه لتاريخ بلاده.

أنجزت ليلي الجولة السياحية لأجل أختها هيلاري. استحمت في البحيرات الساخنة في «باموكال»، وجالت في مدينة مذهلة تحت الأرض، كانت ذات يوم مأهولة بالمسيحيين الأوائل في «كايا دوكيا» و «داليان»، وأبحرت مع رؤوف وحدهما على طول النهر الذي تقوم على ضفتيه أدغال القصب. وتناولا غداءهما في ظل شجرة كستناء، وأصغت إليه وهو

يحدثها عن النزهات البرية أثناء طفولته.

- وأنت أيضاً تحبين النزهة البرية...

قال يذكّرها بذلك مازحاً وهو يحيطها بذراعيه ويشدّها إلى جسمه الجبار، مرسلاً سلسلة من الأحاسيس في كيانها.

- وعليّ أن أعترف بأنني اشتريت هذا الخاتم الماسي الذي وضعته في إصبعك، منذ ثلاث سنوات.

- ماذا؟

اتسعت عيناها الزرقاوان، ونظرت في عينيه مصعوقة: «هل اشتريت لي خاتم خطوبة حينذاك؟».

- نعم. كنت أنوي عرض الزواج عليك أثناء تلك العطلة الأسبوعية الأخيرة، التي أمضيتها معكم في إنكلترا. لكن ابنة أختك غيمّا كانت مريضة حين وصلنا، وكان أبوك مشغول البال بتلك الاتفاقية، فرأيت أن الوقت لم يكن مناسباً لعرض زواج رومنسي... فقرّرت أن أعود لرؤيتك في الأسبوع التالي.

- وبدلاً من ذلك رأيتني مع بريت في الفندق فافترضت الأسوأ.

وتملكتها بهجة بالغة لأنه، بالرغم من علاقتهما التي لم تكتمل منذ ثلاث سنوات، كان يريد أن يتزوجها حينذاك، لكنها تألمت، مع ذلك، لأن سوء التفاهم كاد يفقدهما بعضهما البعض.

وقال يعترف بصوت منخفض وملامح متوترة: «كنت متكبراً أكثر مما يجب وأنا أواجهك بشكوكي، وسأندم على ذلك بقية حياتي. لكن اقتناعي بأنك لم تشعري نحوي قط بما كنت أشعر به نحوك، لأنك كنت تحبين شخصاً آخر، سيطر عليّ حينذاك. كنت محطّماً للغاية... محطّماً إلى درجة لن تسمح لي بالحكم على الحقائق كما يجب. وحفظاً لكرامتي، لم أقل شيئاً».

همست بصوت مرتجف، ونظراتها متعلقة بعينيه النادمتين: «آه، يا رؤوف... هل كل الرجال الأتراك لديهم مثل هذه المخيّلات الخصبة؟

- نحن شعب محموم المشاعر. ولكن المشكلة بيني وبينك، هي أننا أبقينا أموراً كثيرة مكتومة ولم نفصح عنها.

سلّم بذلك بصوت منخفض تقريباً، وتراجع تفكيره المنطقي عندما نظر إلى عينيها الرائعتين، وجاهد في التركيز.

وساد بينهما صمت متوتر في سكون تلك الأرض المعشوشبة.

- لم نفصح عنها..؟

وجفّ فمها، وتسلّلت إلى كيانها حرارة ومشاعر يمكنه أن يشعلها فيها بسهولة.

أحنى رأسه وعانقها عناقاً جعلها ترتجف من شدّة الشوق. وعندما تراجع عنها، وهو يزفر لما يكلفه ذلك الكبت، حاولت أن تشدّه إليها مرة أخرى.

- بعد يومين، سنكون معاً مرة أخرى، يا حبيبتي.

قال هذا بصوت مرتجف وهو يمسك بيدها ويضغط شفتيه على راحتها:

- وأريد أن تكون علاقتنا مميزة جداً.

عاد إلى اسطنبول في الهليكوبتر عصر ذلك النهار، وفي المطار، تلقى رؤوف مخابرة هاتفية تُعلمه عن نزاع حدث في إحدى صحفه. وبآهة طويلة، وضع ليلي في سيارته الليموزين لتعيدها إلى بيت الأسرة، ليذهب هو إلى المكتب ويعالج أمر الإضراب المتوقّع، وقال ينبهها:

- قد لا أعود إلى البيت في الوقت المناسب لآخذكم إلى العشاء كما وعدتكم.

ولم يستطع العودة في الوقت المناسب، ورغم أن بقية أفراد الأسرة ذهبوا وحدهم، إلا أن ليلي كانت تشعر بالتعب. ولعلمها بأن أهلها سيصلون في اليوم التالي من انكلترا، قررت أن تنام باكراً. وبعد أن تناولت وجبة خفيفة، كانت على وشك أن تنام عندما دخلت خادمة لتخبرها بأن لديها زائراً. في كل مساء أثناء الأسبوع كانت ليلي تجلس مع السيدات

الثلاث المسيطرات لتستقبل زيارات رسمية وهدايا من الضيوف الذين سيحضرون العرس. وفي هذه المناسبة، ودون وجود من يساعدها من أسرة رؤوف، لم يكن أمام ليلي إلا أن ترجو أن يكون القادم يتكلم الإنكليزية.

دخلت غرفة الاستقبال، لكن ابتسامة الترحيب تلاشت عندما استقرت عيناها المذعورتان على ذلك الرجل الأشقر الطويل الذي كان واقفاً عند المدفأة. ومنحها بريت ابتسامة كريهة:

ـ ألم أقل لك إنني سأراك قريباً؟

***

١٠ ـ من كل قلبي

جمدت ليلي مكانها، ربما لأطول لحظة في حياتها. بادلت بريت النظر بإحساس خانق بالخوف بينما اقشعر جسدها.

ذلك الوغد لم يُجازف فقط بالحضور إلى تركيا، فقد تجرأ أيضاً وقصد منزل آل كازابيان. لكن ليلي لاحظت أن شيئاً فيه قد تغيّر، كان عادةً بالغ الأناقة لكنه الآن يرتدي بذلة متسخة كما أنه أرخى لحيته وبدت عيناه أشبه ببركتي دم.

وعندما اقترب منها شمّت منه رائحة الكحول فأدركت حالة اليأس التي يعانيها وهو يحاول أن يخفيها.

ـ أنا أعلم أن كلّ أسرة كازابيان هي في الخارج الليلة، وأنا واثق من أنك ستحتفظين بسرّ هذه الزيارة الصغيرة المهذبة بيننا.

قال هذا محاولاً إخافتها. ورغم أن لهجة ليلي كانت فاترة إلا أنها كانت قد تغلبت على خوفها السابق منه وأصبحت تراه بعيني امرأة وليس مراهقة. قد تكون الأسرة في الخارج لكن الباب المؤدي إلى الردهة ما زال مفتوحاً فإحدى الخادمات تسكع عنده، منتظرة منها أمراً بإحضار الشاي إلى الزائر. وقال ساخراً:

ـ كيف يمكنك أن تظنّي أنني مغفل بحيث أصدّق أن رؤوف كازابيان تزوّجك بعد يومين من وصولك إلى هنا؟ فالعرس لن يتم قبل عصر يوم غد. وقد قرأت ذلك في إحدى صحف كازابيان. لكن هذا العرس لن

www.romancia.com

يحدث على الإطلاق إذا أنا فتحت فمي...

كانت تعلم بأن ليس لديها ما تخافه من بريت، وأنها ورؤوف متزوجان، إلا أن إحساساً بارداً تغلغل في كيانها، وهو من بقايا الأيام القديمة السيئة، يوم كان بريت بيت الرعب في نفسها.

أرادت أن تتصل بالشرطة، لكنّها عادت فتذكّرت أنها لا تعرف رقم الهاتف، وأنها لن تجد وسيلة تترك بها بريت وحده دون أن تثير شكوكه.

ـ لن يحدث؟

ورفعت رأسها تتأمله باشمئزاز: «لم يعد بإمكانك أن تؤذيني».

صبغ الاحمرار وجه بريت الشاحب: «لا أستطيع؟ دعيني أطلعك على سرّ: مدفوعات كازابيان في تلك الاتفاقية لم تُدفع قط، وعاجلاً أم آجلاً سينكشف خبر ضياع المال وعند ذلك ستتدمّر «سفريات هاريس» فوق رؤوس الجميع. ولكن إذا أنت أخبرت رؤوف عن ذلك الآن، ستقعين أنت أيضاً في مشكلة كبيرة».

ـ لا أظنّ ذلك.

أجابته بجفاء دون أن تهتز شعرة منها وهي تسمع ما كان بريت يظنه قنبلة العصر.

التوى فم بريت الممتلىء: «حسناً، هذا يثبت فقط مدى غبائك، لأنه عندما فتحت أنا حساباً مصرفياً آخر وضعت اسمك أيضاً! فإذا أنا وقعت تقعين معي، سأقول إنه كانت بيننا علاقة وإنك كنت شريكتي في السرقة. لذا من الأفضل أن تسكتي إلى أن تضعي خاتم الزواج ذاك في إصبعك...».

فقاطعته باحتقار غاضب: «ما زالت التهديدات القديمة هي هي حتى أصبحت مبتذلة. أنا لم أعد تلك الفتاة المراهقة الخائفة، وأنا أعلم أنك لا بد خائف جداً ما جعلك تجازف بالمجيء إلى هنا..».

ـ اصعدي إلى الطابق العلوي يا ليلي.. أنا سأتصرف معه.

وكان هذا صوت رجل مألوف للغاية.

في الثواني التي تلت دخول رؤوف الهادىء، تملّك الذعر بريت فاندفع إلى الأمام في الوقت الذي كانت فيه ليلي تستدير بدهشة وارتياح لرؤية رؤوف، ودفع ليلي في طريقه إلى الباب، فاندفع رؤوف إليه بدوره كالأسد. لكن رؤوف لم يكد يهوي بلكمة على الرجل حتى لاحظ أن ليلي اصطدمت بالجدار حين دفعها بريت وسقطت على الأرض. غضب رؤوف لجرأة بريت على تهديد زوجته مرّة أخرى، وخشي أن يكون قد ألحق بليلي أي أذى.

وإذ شعرت ليلي بالدّوار وانقطع نفسها لسقوطها هذا، استسلمت إلى ذراعي رؤوف الذي حملها إلى أقرب أريكة: «هل أنت بخير؟».

فشهقت: «بريت؟».

انصفق الباب الخارجي أجاب على السؤال فتأوه رؤوف بصوت عالٍ محبطاً: «عدت بعد دقائق من وصوله فاتصلت بالشرطة على الفور. وكان عليّ أن أمكث خارج الغرفة إلى حين وصولهم، لكنني لم أستطع أن أحتمل سماعه وهو يهدّدك».

فقالت وهي ترتجف: «أنا مسرورة لأنه ذهب».

بعد أن فكّر في أن القبض على بريت ومحاكمته قبل العرس قد يلقي ظلاً قاتماً على الاحتفالات، شدّد من احتضانها وهو يتمنى لو استطاع أن يوجّه إليه أكثر من مجرّد لكمة واحدة.

أضافت ليلي: «وأنا مسرورة لأنه لم يحدث بينكما قتال».

ومرّة أخرى لم يقل رؤوف شيئاً، مدركاً أن الذعر سيتملّكها إذا هو اعترف بأنه أسف لفوات هذه الفرصة، التي ربما كانت الأولى والأخيرة. وأشار إلى ليلي بالصعود إلى غرفتها، ثم عاد لمواجهة الشرطة.

وصلت أسرة ليلي عصر اليوم التالي. وبدا أبوها، دوغلاس هاريس، أكثر تألقاً من ذي قبل وبنات أختها كن يثرثرن بحماسة. وبعد التعارف وتبادل العبارات التقليدية الضرورية والحديث مع أبيها الذي أخذ يثني على رؤوف بشكل بالغ، أخذت ليلي أختها إلى غرفة أخرى لتتحدثا على

انفراد.

عانقتها أختها بمشاعر جيّاشة على غير العادة ثم تنهّدت: «لم أتصل لأنه كان لدي الكثير لأخبرك به. أولاً، سمعت هذا الأسبوع أن بريت وصديقتي السابقة قد افترقا».

ـ آه، هذا حسن. إنها العدالة.

ـ حسناً، قد يكون الأمر كذلك.

ونظرت إليها هيلاري متفحّصة بجفاء: «يبدو أن بريت قد سرق من جائيز المال الذي قبضته بعد طلاقها، فتدخلت الشرطة في الأمر. وتقول الشائعات بأنه كان يقامر..».

ـ يقامر؟

ـ أظنّ أن هذا يفسر ما فعله بكل المبالغ التي كان يختلسها من «سفريات هاريس». لكنّني أحمد الله على أمرين: الأول هو أن بريت كان أباً غير نافع إلى درجة أن البنات لن يفتقدن قط ما لم يحصلن عليه أبداً من حنانه. والثاني هو أنني أدركت منذ سنوات أي رجل قذر تزوجت.

طرفت ليلي بعينيها إزاء ذلك التأكيد الواضح المدهش: «هل... أدركت؟».

ـ لسوء الحظ، لم يكن لدي أي فكرة عن اختلاسه. ولكن بعد أن ولدت جوي بالضبط، أدركت أنه كان يخرج مع نساء أخريات. ولكن كان ذلك بعد أن تنازل أبي عن البيت، وجعلتني البنات أشعر بأن عليّ أن أحاول المحافظة على زواجنا...

ـ يمكنني أن أفهم هذا. ولكن بما أنك ما عدت تحبينه، لماذا كنت تبدين دوماً حزينة كلما جاء ذكره؟

فأجفلت أختها: «ربما لأنني أدركت أنني ضيّعت السنوات القليلة الماضية من حياتي. فقد اكتفيت بأن أكون أمّاً، وتغاضيت عن علاقات بريت مع النساء. لو أنني تصوّرت فقط ما كان يجري أمامي، لو علمت أن بريت كان يهدّدك...».

وزفرت بألم وأخذت تهزّ رأسها ببطء وندم مرّ: «... لكنت ذبحت بريت منذ فترة طويلة!».

هتفت ليلي: «وكيف عرفت ذلك».

ـ أخبرني رؤوف بكل شيء ولكن إياك أن تجرؤي على انتقاده لتدخله، لأنني أعرف تماماً أنك ما كنت لتخبريني قط! وبعد أن علمت بهذا، وعلمت أنه هارب من الشرطة التركية، لن أتردّد في تسليمه بنفسي إذا عرفت مكانه...

ـ هل أنت جادّة؟

قاطعتها ليلي بهذا السؤال لأنها كانت تتساءل عما سيحصل إذا تم القبض على بريت قبل العرس، خائفة من أن تعلم أختها بما حدث فتتكدّر للغاية.

تنفّست هيلاري بعمق وقد جمدت ملامحها وتوهّج فيها الغضب: «أنا أريد أن يُقبض عليه ويُسجن أيضاً. وفي الواقع، عندما أخبرني رؤوف عن جرأة قدومه إلى هنا الليلة الماضية ومحاولته العودة إلى تهديده السابق، أخذ دمي يغلي!».

تحدثت الشقيقتان أكثر من ساعة، سألت ليلي بعدها أختها عن رأيها في رؤوف، فأجابت هيلاري بتسلية مفاجئة:

ـ إنه يعبدك تماماً، وهذا يبدو عليه بوضوح. لماذا تبدو عليك الدهشة؟ أعني لا بد أنك تعلمين بذلك بعد أن تزوّجك بهذه السرعة!.

(إنه يعبدك). وكادت ليلي تذكر لها أن رؤوف قد استعجل بالزواج المدني فقط لأنه جاء بها إلى منزله وما كان يجدر به ذلك، لكنها غيرت رأيها عندما رأت هيلاري تحت تأثير الاعتقاد بأنها تتمتّع معه بحبّ شاعري رومنسي حقيقي. ذلك أن رؤوف دافئ حنون ولكنه لم يذكر بعد كلمة (حب)، وكانت ليلي سعيدة لأنها سبق وقرّرت ألا تدع ذلك يزعجها.

عند فجر اليوم التالي، ابتدأت تحضيرات العرس. قادوا ليلي

إلى (الحمام التركي) تحيط بها نسوة نشيطات أخذن يسكبن الماء الساخن على جسمها ثم غلفنها باللبان من الرأس حتى أصابع اليدين. كان ذلك شيئاً مسلياً تماماً. ضحكت ليلي كثيراً بينما كانت هيلاري تنظر إليها برعب. أما شعرها فقد غُسل بالبابونج فبدا ناعماً برّاقاً كالحرير. ثم أجلسنها على أريكة جلدية حيث أخذن يدلكن بشرتها بزيوت عطرية. ولم يكن كل ذلك مرهقاً لها كما كانت تظن بل شعرت أنّها في غاية الراحة والاسترخاء.

وفي الغرفة الخارجية قُدّم إليها عصير التفاح المغلي ثم قُلمت أظافرها ووُشمت يدها اليمنى بالحنّاء.

وهمست والدة رؤوف: «هذا ليرضي «نور الصباح»...».

وأوضحت أن السيدة العجوز شعرت بخيبة الأمل عندما علمت أن ليلي لن تدخل قاعة الاحتفال على ظهر حصان أبيض.

وبعد ساعتين، أخذت ليلي تدور راقصة أمام مرآة طويلة، وقد أعجبها ثوب عرسها الرائع. تصميمه التقليدي البسيط بدا في منتهى الرّقة. وجاءت هديّة العرس من رؤوف عقداً مزخرفاً رائع الجمال من الذهب. ولمعت عينا «نور الصباح» المتألّقتين مثل عيني ليلي لتحقيق هذا التقليد المتّبع. وتحت ثوبها لبست حمالة جوارب زرقاء هدية من هيلاري وكذلك طقماً من الملابس الداخلية الحريرية. وعندما فاجأتها بنات أختها بملابس وصيفات العروس الجميلة، ملأن قلبها بهجة.

تركت منزل آل كازابيان متأبطة ذراع أبيها الفخور لتصعد إلى العربة المفتوحة التي يجرها حصانان أبيضان. ولكن دون شك، اللحظة الأشد إشراقاً في يومها هي عندما دخلت الفندق الفخم ورأت رؤوف بانتظارها. أخذ يحدّق فيها صامتاً بإعجاب بالغ جعلها تحمرّ خجلاً. بينما كانت عيناها هي أيضاً تنهلان من مظهر زوجها الرائع ببذلته السوداء الفاخرة.

قال بصوت أبح: «لقد حبست أنفاسي».

ثم قادها إلى القاعة على وقع موسيقى الزفاف بينما سار الجميع

وراءهما.

انتهت طقوس الزواج الرسميّة، وتناولا الطعام ثم قطعا الكعكة. بعد ذلك طلب قبلة منها جعلت خفقات قلبها تتسارع. وعندما دار بها على الأرض يراقصها، قالت لاهثة: «لم أكن أتوقّع هذا».

فقال بابتسامة مشرقة أدفأت قلبها كشمس تركيا: «هذا مقبول تماماً في عرسنا. ولكن لا تدهشي عندما أختفي فيما بعد لأن أسرتي ستحضر لي عروسي إلى عتبة باب بيتي حيث نستريح شهراً منهم جميعاً...».

فقالت باحتجاج: «لكنني أحبّ أسرتك كثيراً!».

ـ غداً سنرحل لنمضي شهر العسل في يختي، فإذا تعبنا من ذلك، يمكننا أن نذهب إلى أي مكان ونفعل ما نريد...

فهمست: «أو لنتسلل عائدين إلى سونغول. ما زلت أشعر بأن ذلك المنزل هو الأحب إلى قلبي».

مكثت أسرة ليلي أسبوعاً مع أسرة رؤوف، فودّعتهم ليلي ثم ركبت الليموزين التي كانت تقلّ «نور الصباح» ومانوليا، لأنه ليس لوالدة العريس أن تأخذ العروس إلى بيت المستقبل.

نزلت حيث كان رؤوف ينتظرها أمام بيت آخر عريق بالغ الفخامة، وضحكت حين رفعها عن الأرض وحملها إلى الداخل، وقالت بسعادة: «كان يوماً رائعاً».

ـ لم ينته تماماً بعد.

ووضعها على الأرض ثم قادها إلى غرفة نوم رائعة متألقة تطل على مضيق البوسفور: «أتعلمين أنّني لم أقل قطّ كلمة أحبك لأيّ امرأة حتى اليوم؟ أشعر بالخجل من أن أقدّم إليك حبي».

فأخذت تتأمّله غير مصدّقة: «تشعر بالخجل؟».

ـ لكن حبّي هو لك، وكان كذلك دوماً.

قال ذلك متوتّراً وهو يقف بجانب باب يؤدي إلى شرفة تدلّت على جوانبها الأزهار الرائعة.

ـ كان كذلك دوماً.

كرّرت قوله هذا وقد تأثرّت لرؤية رؤوف يجاهد في البحث عن كلمات بدا صعباً عليه النطق بها.

ـ في التاسعة عشرة من عمري كنت مفتوناً بقسمت، لكنّني لم أعرف الحبّ حتى عرفتك. لقد طعنت كرامتي ومنحتني عذراً لألغي فكرة الزواج من رأسي. أتعلمين؟ أنا ما زلت غاضباً جداً بسبب ما أخبرتك به من أكاذيب هذا الأسبوع.

فقالت واهتمامها مركّز على ما كان قد قاله لتوّه: «إنس هذا! إنها مجرد امرأة غيور تريد أن تُفسد علينا سعادتنا».

ـ عندما تعارفنا منذ ثلاث سنوات، كنت أظن نفسي بارعاً حاذقاً.

والتوى فمه الواسع بازدراء: «أردتك لمجرّد علاقة عابرة، وكنت أنت تستحقّين أكثر من ذلك بكثير. لكن نجاحي مع نساء كثيرات جعلني أنانياً متغطرساً. وإصراري على عدم الزواج كاد يدمّر علاقتنا..».

ـ ومع ذلك اشتريت حينذاك، ذلك الخاتم الماسي الذي ألبسه الآن.

ذكّرته بذلك برقّة والحبّ في عينيها. فاحمر وجهه: «لم أكن ناضجاً يومها. كنت سأعطيك الخاتم حينذاك بشيء من الاستياء لأنني لم أستطع الحصول عليك بطريقة أخرى. وهذا شيء لا يمكنني أن أفخر به. إنما الآن أنا أسوأ ممّا كنت في بداية تعارفنا...».

ـ وكيف؟

ـ لأن الغيرة من بريت كانت تأكلني. ظننتك جئت إلى تركيا فقط لأن امرأة أخرى أخذته. كانت تلك الغيرة المرّة قد تأصّلت في نفسي بعد ثلاث سنوات، بحيث صرت أشكّ في أيّ شيء له علاقة ببريت. لقد تصرّفت خلال اليومين اللذين أمضيناهما معاً في منزلي، كرجل لا يفكّر سوى بخلية واحدة من عقله.

ـ هل كنت تغار من بريت...؟

ـ وعندما سمعتك تتحدّثين إليه هاتفياً ظننت أنّك تفضلينه عليّ. لم

أكن بحاجة إلى سماع ما يثير شكوكي في الحديث، لكي أزداد عذاباً.

ـ ومع ذلك بقيت راغباً بالزواج مني لأنك تحبني.

أخذت تحلّل هذه الحقائق برضى هائل، لأنها لم تكن تحلم أن يحبّها رجل كثير الكبرياء مثل رؤوف بهذا القدر. كان حبّه حقيقياً، حبّ تغلّب على الكبرياء وعلى كلّ ما اعترض طريقه من عقبات.

ـ لقد شككت بك مجدداً عندما كنّا في الطائرة متجهين إلى اسطنبول. رأيت اسمك على بيان الحساب المصرفي، فظننت أنني فقدتك نهائياً.

وشتم رؤوف وهو يبسط يديه بحركة تعبيرية.

ـ فقداني ليس بهذه السهولة.

ـ جعلني كبريائي أقنع نفسي منذ ثلاث سنوات بأن حبّي لك قد مات. لكنّني أعرف الآن أنك كنت تهيمن بي في تلك الأيام وأنّني لا بد آذيتك كثيراً...

ـ نعم، أنت آذيتني كثيراً جداً.

وشحب وجه رؤوف، ولكنه تصرّف وكأنّه كان يتوقّع قولها هذا. بينما تابعت هي: «اختفيت فجأة وكأنّك لم تظهر في حياتي، فاعتقدت بأنني كنت فقط أتخيّل ما كان بيننا. وظننت أنه لا بد كان شيئاً عادياً بالنسبة إليك».

فصدرت عنه ضحكة مرّة: «شيئاً عادياً؟ لقد مرّت ستة أشهر قبل أن أتمكن من النظر إلى شقراء في الشارع دون أن أرجو سراً أن تكون أنت. لقد أجهدت نفسي بالعمل طوال تلك السنة، لكي ألهي نفسي عنك. لم أؤمن من قبل بحبّ كهذا إلا بعد أن أمضيت فترة من دونك، وأصعب ما عليّ تحمّله الآن هو اقتناعي أنني كنت أستحقّ تلك التعاسة».

شعرت ليلي بنفسها فوق السحاب، وهي تعلم أنّ رؤوف أمضى ذلك الوقت الصعب من دونها، لكنّها فكّرت في أن اللباقة تقضي بأن تخفي سرورها الذي بدا لها قاسياً قليلاً. وفي الوقت نفسه كانت الآن مستمتعة بتأكيده بأن حبّه كان لها ودوماً كان كذلك.

ـ وأنا أيضاً لم أكن سعيدة. أخبرني، متى اكتشفت أنّك ما زلت تحبّني؟.

ـ دوماً كنت أعلم أن حبّك كامن في أعماقي.. لكنّني لم أعد أفكّر فيه أبداً بعد مرور سنة على فراقنا. لقد نبذته من ذهني إلى أن رأيتك مجدّداً. فوجئت وصمّمت على أمر سيء...

ـ مثل ماذا؟

سألته فجأة وهي تفكّر في أن الحبّ مخيف إذا كان (كامناً) كالسرّ.

ـ قرّرت أن أنتقم منك عندما أخذتك إلى «سونغول» لتقيمي معي. ولكن في الحقيقة، كنت فقط أنتهز الفرصة عند أول عذر ممكن، لكي أكون معك مرة أخرى. لم أكن أعلم ما أفعله... لكنني علمت أنّني أحبّك أثناء عقد زواجنا المدني..

ـ لماذا لم تذكر ذلك إذن؟ لماذا انتظرت حتى الآن.

ـ لأنني كنت قد أسأت معاملتك، وهذا أخجلني. أنا لم أعطك ما تستحقّينه، فشعرت أن ليس لي الحق في أن أتحدّث عن الحبّ. كل ما فعلته هو أنّني سبّبت لك مزيداً من الحزن وهذا ما جعلني أندم للغاية.

فقالت شاعرة بالذنب: «لكنّني تسبّبت بالكثير من ذلك لنفسي. فأنا لم أستطع أن أحمل نفسي على البوح لك بما عانيته من بريت...».

ـ كنت أشعر بأنّك تخفين شيئاً. أنت لست ماهرة في الإخفاء. كنت أعلم أنّ هناك سرّاً، لذا بقيت شكوكي بعلاقتك مع بريت قائمة. وعندما عرفت الحقيقة، انتهى كل شيء.

احمرّ وجه ليلي وتمتمت بارتباك: «يقول المثل إن الصدق ينجي».

ـ لكن جوّ الشك وعدم الثقة لا يشجّع الصدق.

تأملها رؤوف والإنهاك باد في نظراته وقد توترت ملامحه: «كل ما أريد أن أسألك الآن هو إذا كنت ستشعرين يوماً ما أن بإمكانك أن تحبّيني مرّة أخرى؟».

أخفت ليلي نظراتها بأهدابها، فهي لا تريد أن تطمئنه بسرعة: «كلّ

شيء محتمل».

ـ حبّي لك يكفينا نحن الإثنين، يا حبيبتي.

ـ أنا واثقة من ذلك.

واجتازت ليلي الغرفة إلى حيث كان يقف. وبرؤية الحب العنيف في عينيه، لم تستطع أن تبقيه قلقاً أكثر من ذلك: «ولكن، لحسن حظنا، نحن الإثنين، لم أنجح في نسيانك أكثر مما نجحت أنت في نسياني، فأنا ما زلت أحبك من كل قلبي».

مضت عدة ثوانٍ أخذ رؤوف يحدّق أثناءها فيها بدهشة، ثم، وبشكل مفاجيء، تقدّم إلى الأمام واختطفها بين ذراعيه وأحاط وجهها بيديه المرتجفتين: «أنت لا تقولين هذا لإرضائي فقط، أليس كذلك؟».

ـ لا. أنا لست من ذلك النوع.

قالت هذا والهزل في عينيها: «أنا فقط أحبّك كثيراً كثيراً، ولم أعرف رجلاً جعلني أشعر نحوه بما أشعر به نحوك».

ـ لا بد أنهم رجال فاشلون هناك، لأنّني لست مؤثّراً في النفس إلى هذا الحد.

قال ذلك ثم ضمّها إلى صدره بكل ما في نفسه من مشاعر محمومة.

ثم تسارعت الأمور. أُسدلت الستائر بسرعة وسقط العروسان بين ملاءات سرير الزوجية للتعويض عمّا فاتهما من ما مضى من حياتهما.

ـ كنت استيقظ في كل ليلة فأسير في الغرف... لقد افتقدتك كثيراً.

تملّكها الشعور بالأمان والاطمئنان وهي تستمتع بحنانه وأحست بالسعادة التي تطلّ من عينيه. أصبح لحبّهما بُعد آخر، وتقارب رائع ونتيجة هانئة.

أخبرها عن زيارة ضابط الشرطة طالب حجّار إلى سونغول. وكم كانت ثقته بها كاملة حين أوضح للضابط ما كانت تفعله في تركيا. ثم جعلها تضحك عالياً عندما اعترف بأن رؤية اسمها في بيان ذلك الحساب المصرفي مع اسم بريت قد جعل الذعر يستبدّ به لأجلها وقال بشيء من

الارتباك:

- وفقدت على الفور كلّ رغبة في رفع دعوى ضد بريت، لأنني خفت ألاّ تستطيع الشرطة أن تثبت براءتك. عند ذلك أدركت أنني سأكذب وأخالف القانون وأفعل أي شيء لكي أحميك، فحطم ذلك اعتباري لنفسي كرجل شريف.

رفعت ليلي نظرها إلى العينين الذهبيتين اللّتين كانتا تتأملانها بحبّ، ولم تشأ أن تخبره بأن إلى جانب كلمات الحب تلك التي كانت مقتنعة بأنها لن تسمعها أبداً منه، ما يقوله الآن هو أكثر اعتراف سمعته تأثيراً في النفس.

- لقد تملّكني الاضطراب والحيرة نوعاً ما عندما قلت لي فجأة إنك ستأخذني إلى خارج البلاد وكأنني خريجة سجون.

وأخذت تضحك بعجز.

- أنا لم أرفع دعوى بعد ضد بريت لأجل الأموال المفقودة، فكيف يمكن أن تكوني في خطر؟ أظنّني أعلم الآن لماذا لم أقع في الحب من قبل. لا بد أن الحاسّة السادسة حذّرتني أن من الممكن أن يذلّني الحبّ ويربكني، بشكل لم أعرفه في حياتي.

عندما أسدل شعرها المكوّم على رأسها وشدّها إليه، ابتسمت وقد أشرق الرضى على وجهها وقالت مازحة:

- لكنني سأعوّضك عن كل شيء. أنا أحبّك أكثر كما أنت.

- مع عيوبي وكل مساوئي؟.

فأومأت ليلي بتساهل. وأشرق وجه رؤوف بابتسامة أدخلت الدفء إلى جسمها: «حبّك أجمل ما حدث لي على الإطلاق... وأنا أحبك أكثر من أي شيء في هذا العالم».

* * *

بعد ذلك بعشرين شهراً، كانت ليلي تضع طفلها في عربته

في «سونغول».

كان ثيمسي في الشهر الرابع من عمره. وأخذت تدندن له بأغنية للأطفال وتهدهده إلى أن أغمض عينيه الكبيرتين ببطء، وانسدلت أهدابه السوداء التي ورثها عن أبيه على وجهه المستدير الصغير.

ومن نافذة غرفة الأطفال، أخذت تنظر إلى الشمس وهي تغيب في جمال الربيع فوق الحديقة الرائعة، قبل أن تسدل الستائر ثم تعود لتطمئن إلى أن طفلها مرتاح قدر الإمكان. كان طفلها قد ابتدأ ينام لفترات طويلة.

وتذكّرت رؤوف الذي وقع في غرام ثيمسي من النظرة الأولى. كان ثيمسي أكثر الأطفال دلالاً. بكت «نور الصباح» من الفرح عندما رأته، وكذلك امتلأت ابنتها وحفيدتها سعادة بهذا الضيف الجديد إلى الأسرة.

- أربعة أولاد؟

همست «نور الصباح» بذلك بلهجة تآمريّة لليلي، وهي تنظر بعينيها الحكيمتين إلى رؤوف، وهو يحتضن طفله بزهو حنون: «إنه يصلح أباً لستة أطفال على الأقل! فهو حنون جداً على الرغم من مظهره الخشن».

نعم، لقد اكتشفت ليلي أن تعلّم اللغة التركية أفادها حتماً. كانت «نور الصباح» تعرف رؤوف باطناً وظاهراً ولكنها ما كانت لتكشف له عن حقيقته قطّ.

كانت ليلي لا تكاد تصدّق أنه مضى على زواجها سنة وثمانية أشهر. فقد مرّ الوقت بسرعة لفرط سعادتها. عندما عاد رؤوف وليلي من شهر عسلهما الرائع، تملّكهما الذهول لدى علمهما أن بريت غيلمان قد مات. فبعد أن وجد بريت وسيلة يعود بها إلى انكلترا، قُتل في حادث سيارة... ويبدو أنه كان ثملاً. وهكذا أغلقت ملفات بريت غيلمان.

صعقت هيلاري عندما قُتل زوجها السابق، وحزنت بناتها كثيراً. ولكن في الوقت نفسه، لن يتأثرن كثيراً بموته لأنهنّ نادراً ما كنّ يرينه.

حاول رؤوف أن يشتري لأختها منزلاً أكبر حجماً، لكنّها رفضت. كانت هيلاري تكافح في سبيل بناء «سفريات هاريس» من جديد. كما أن

سرحان ميروش، المستشار الاستثماري الجديد لرؤوف، والذي كان في الأربعين من عمره، أخذ يكثر من زيارته لها لإسداء النصيحة والإرشاد.

وذات مساء، عاد رؤوف إلى البيت وقال لليلي بابتسامة خبيثة راضية: «سرحان غارق في غرام هيلاري. ويريد أن يحمل عنها كل أعباء العمل».

ـ لا أصدّقك.

قالت ليلي هذا ضاحكة، فقد كان سرحان يبدو لها رزيناً وقوراً رغم جمال مظهره.

فاتسعت ابتسامة رؤوف: «لقد اعترف لي بذلك، حين سألني إذا كنت أمانع إن خرج مع أختك إلى العشاء. وقد يستغرق منه استجماع شجاعته لذلك شهراً آخر. إنه خجول جداً مع النساء... لماذا تظنّينه ما زال عازباً إذن؟».

فقالت توافقه وهي تقطّب جبينها مفكّرة: «أنا أعرف أن هيلاري تحب العمل معه. ولكنّها لا تبدو مهتمّة بالزواج من رجل آخر».

ـ ربما كان سرحان خجولاً، لكنّه عنيد للغاية إذا هو صمّم على شيء. فإذا كان مصمّماً حقاً على ذلك، قد يتزوجان خلال هذه السنة.

وتملك ليلي السرور حين تحقّقت توقّعات رؤوف. رغم أن وصول سرحان بهيلاري إلى عتبة الزواج استغرق مدة تزيد عن السنة بقليل. ذلك أن عرضه الزواج عليها في أول موعد لهما أعاقه في الواقع أكثر مما ساعده للوصول إلى غرضه.

ومنذ شهر واحد فقط سافر رؤوف وليلي لحضور العرس، وأحضرا معهما البنات بيني وغيمّا وجوي إلى بيتهما، لكي يتسنى للعروسين الذهاب في رحلة شهر العسل. وكانت «سفريات هاريس» قد بيعت، وصمّمت هيلاري على إنشاء عمل آخر في اسطنبول بعد أن وجدت أخيراً السعادة التي تستحقّها. وتملّك ليلي السرور لكون أختها وبناتها سيعشن

قريباً منها. ورغم إصرارهم جميعاً على أن يقيم الأب دوغلاس هاريس مع هيلاري وزوجها في تركيا، إلا أنه قرّر أن يبقى في إنكلترا. وكان قد انتقل للعيش في شقة مريحة..

كان رؤوف وليلي يأتيان إلى سونغول كلّما أمكنهما ذلك. دخل رؤوف غرفة نومهما معلقاً سترته على كتفه، وربطة عنقه محلولة وعيناه تلمعان إعجاباً بليلي في قميص نومها المتعدد الألوان:

ـ أنت تسلبين العقل.

ـ وأنت سريع التأثّر.

كانت تقول هذا مازحة، ولكن إذا كان هذا صحيحاً فقد كانت عاجزة عن مقاومة الإغراء من هذه الناحية، فقد كانت ملامحه الوسيمة وبنيته المتينة تجعلان قلبها يقفز.

وأجاب: «لا، لكنّني في كلّ مرّة أنظر فيها إليك، أدرك كم أنا محظوظ».

واتجه إلى الغرفة الملحقة بغرفة النوم، حيث ينام ثيمسي دائماً أثناء وجودهما في «سونغول»، وذلك ليلقي نظرة على ابنه النائم.

ـ إنه ينمو أمام أعيننا. سيكون طويلاً مثلي.

ثم طوّق رؤوف زوجته ورفعها على قدميها فراحت تضحك بسعادة ورضى.

عادت تستلقي على السرير وهي تمدّ ذراعيها تحتضنه مرّة أخرى، وتبتسم في عينيه الذهبيتين الصافيتين، شاعرة بالحبّ مستمتعة بتقاربهما هذا.

وقال لها بصوت أبحّ: «أكره أن أبتعد عنك وعن ثيمسي أثناء وجودي هنا. سأنشىء مكتباً أفضل بحيث أستطيع العمل من هنا».

ـ فكرة لامعة.

فقال باسماً: «أحياناً لدي أفكار تعجبك».

فنظرت إليه بخبث: «دائماً.. لماذا تظنني أحبك إلى هذا الحد؟».

أخفض بصره ونظر إليها بنظرة هي مزيج من التسلية والحبّ في عينيه المتملكتين: «أنا أعبدك وأنت تعلمين هذا».

وكانت تعلم فعلاً أنها محبوبة، وأكثر من ذلك أن الأمان والثقة قد زادا من اطمئنانها. عانقته واستسلمت إلى بهجة حبّهما.

***

www.elromancia.com
مـرمـوريـة